مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الانسانية)، مجلد ٢٥(٧)، ٢٠١١

أثرُ الشِّعرِ في الخبَرِ السّياسيِّ قراءة في "مقاتل الطّالبيّين" زمن العبّاسيّين الأُوَلِ

The Influence of Poetry on Political News A Reading in the "Talibites' Assassinations" in the First Phase of the Abbasid Era

عيسى المصري

Essa AL-Masri

قسم اللغة العربية، كليـة الآداب والفنون، جـامعـة حـائـل، المملـكة العربية السعودية

بريد الكتروني: essa977@live.com

تاريخ التسليم: (٢٠١١/١/١٠)، تاريخ القبول: (٢٠١١/٧/٢٦)

ملخص

يسعى هذا البحثُ إلى تقديم قراءة نقديَّة للشِّعر الذي رافق الأخبار التَّأريخيَّة ذات الطّابع السّياسيِّ في كتاب مقاتل الطّالبيّين لأبي الفرج الأصفهانيِّ، ويخصُّ بالقراءة الحقبة العبّاسيَّة الأولى التي دار الصِّراع فيها بين أولاد العمومة من الطّالبيّين والعبّاسيّين. وينطلقُ البحثُ في قراءته من فكرة ترى أنَّ بنية الشِّعر قد تؤثِّر في بنية الخبر المنثور؛ وذلك إذا كان المؤلِّفُ على وعيٍ عميقٍ بوظيفةِ الشِّعر، وبخصوصيَّة لغته، ودورها الكبير في الإيماء والإشارة إلى الأفكار، أو في التَّصريح بها والإرشادِ العلنيِّ إليها. وينتظمُ البحثَ محاورُ عدَّة تأتلف في مجموعها لمعالجة فكرةٍ واحدةٍ هي موضع الدَّرس، فيعرضُ لبنية الخبرِ مبيِّنًا تشكيلها وتركيبها في المصنَّفات القديمة ذات النَّسق التَّجميعيِّ، كما يُبيِّنُ طبيعة ائتلاف البنية الخياليَّة والواقعيَّة فيها، ويكشفُ عن البنية الاعتقاديَّة السّياسيَّة في كتاب مقاتل الطّالبيّين خاصَّة. ثمَّ يتناول بالتَّحليل الأشعار التي تضمَّنتها أخبارهم زمن العبَّاسيّين الأوَلِ، ويُرتِّبها وفق ناظمي الشِّعر من المقتولين أولاً، ثمَّ من أهلهم وذويهم ثانيًا، ثمَّ من الشُّعراء المشهورين والمغمورين من أنصارهم ثالثًا.

الكلمات الدالة: الشعر، الخبر السياسي، النقد الأدبي.

Abstract

This study aims at conducting a critical reading to the poetry which accompanied historical political news in the book "Maqaatil AL_Talibiyyen" (Talibites' Assassinations) by Abu AL-faraj AL-Asfahani with special focus on the first abbasid phase in which there was a struggle between the Abbasids and their cousins, the Talibites. The study emanates from a notion that views the structure of poetry as a factor which may influence the structure of narrated news when the composer is deeply aware of the function of poetry and the particularity of its language and its considerable role in implying and signaling ideas or in directly stating them. The study consist of several sections which together deal with a single idea. It reviews the structure of news in ancient manuscripts of an additive style, it explains the nature of the correlation between the fictional and realistic structure in it, and uncovers the doctrinal political structure in "Maqatil AL-Talibiyyeen" in particular. Then it analyzes the verses that contained their news in the first phase and arranges them according to the poets, first in relation to the assassinated persons themselves, second in relation to their families and relatives, and third in relation to their supporter famous and mediocre poets.

Keywords : Poetry , Political news, Criticism**.**

مقدمة

تلازمَ في كتاب أبي الفرج الأصفهانيِّ (مقاتل الطّالبيّين) الشِّعرُ والخبرُ إلى حدٍّ كبير؛ فالكتاب كتابٌ تأريخيٌّ لكنَّه حوى كثيرًا من الأشعار التي تتَّصل بحوادثَ شهدتها حياة الطّالبيّين، فجاء بعضها ليُمثِّل ما يُسمَّى شعر المناسبات، وجاء بعضها الآخر ليُمثِّل ما يُسمَّى شعر المعتقدات، والعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكلِّ؛ فشعر المعتقدات يشملُ شعر المناسبات الخاصَّة بالمعتقد، ويتميزُ بارتباطه الوثيق بزمانٍ معيَّن أو مكانٍ معلوم، كما يشملُ ما قيل في الدَّعوة إلى المعتقد وترسيخ مبادئه ونصرة أفكاره، من لدن نشوئه حتى انتهاء وظيفة الشِّعر، وانتفاء ضرورتها بعد ذيوع المعتقد واشتهاره.

ولم يقفِ التَّلازم بين الشِّعر والخبر على مؤلفات الأدباء ممن صنَّفوا في التَّأريخ، بل كان سنَّة تأليفيَّة تعاهدها جمهور المؤلفين القدامى على اختلاف مناهجهم العلميَّة ومنازعهم النَّظريَّة؛ مما يستوجبُ على الباحثين ضرورة النَّظر في هذا التَّلازم الذي لا يكفُّ يخْدِمُ المدرستين التَّأريخيَّة والأدبيَّة على السَّواء؛ فهو يخدم التَّأريخ بفحصه مضامين الشِّعر، وقياسه مدى التَّوافق أو الاختلاف بين النَّصِّ التَّأريخيِّ ممثَّلاً بالسَّرد الخبريِّ، والنَّصِّ الشِّعريِّ ممثَّلاً بالأبيات المُضمَّنة. كما يخدمُ الأدب من خلال تحديد قيمة الشِّعر في مقابل المعارف الأخر، من تأريخ وسياسة واجتماع... وغيرها؛ ليلقي بذلك الضَّوء على نمط معرفيٍّ شُغِل نُقّاده كثيرًا بسياقاته الجماليَّة شغلاً كاد يفرغه من القيمة، وأغفلوا دوره الكبير في الفهم الدَّقيق لحقائق الأشياء وظواهرها.

وبالنَّظر في كتاب مقاتل الطّالبيّين يتبيَّنُ أنَّ الكتاب يُحقِّق مجموعة من المميِّزات التي تجعله مثار اهتمام الدّارسين في المجالين التّأريخيِّ والأدبيِّ، لعلَّ أهمّها البناء العقديُّ الذي قام عليه، والرّوحُ السِّياسيُّ الذي احتوى مضامين أخباره، والتَّضمينُ الشِّعريُّ الذي تخلل كثيرًا منها، وظاهرٌ أنَّ المزيَّة الأخيرة هي التي تستثيرُ ناقد الشِّعر؛ فتتنازعه بسببها كثير من التساؤلات عن هذا الحضور اللافت للشِّعر في الخبر، فهل كان المؤلف يقصدُ إلى هذا التَّضمين قصدًا؟ وهل أثَّر الشِّعرُ في مضامين الأخبار؟ وهل كان توظيفُ الشِّعرِ عقديًّا خالصًا أم تجاوز ذلك إلى الاعتناء بنصوص المُخالفين وقبولها؟ وهل كان الشِّعرُ قادرًا على التَّعبير عن الرّوح السّياسيّ الخاصِّ بالأخبار؟.

ويجيبُ البحثُ عن هذه الأسئلة من خلال قراءة الأخبار الخاصَّة بالطّالبيّين في العصر العبّاسيِّ الأول، وهي الحقبة التي دار فيها الصِّراع حول السُّلطة بين الأقارب أولاد العمومة: الطّالبيّين والعبّاسيّين؛ ممَّا يُضْفي على الصِّراع طابعًا خاصًّا مختلفًا عن سابقه الذي كان طرفُهُ الأمويّين الأباعد.

وينطلقُ البحثُ لتحقيق غايته من فكرةٍ ترى أنَّ بنية الشِّعر المنظوم قد تؤثِّر في بنية الخبر المنثور، وذلك إذا كان المؤلِّف على وعيٍ عميقٍ بوظيفة الشِّعر، وبخصوصيَّة لغته، ودورها الكبير في الإيماء والإشارة إلى الأفكار، أو في التَّصريح بها والإرشاد العلنيِّ إليها.

ومن أجلِ ذلك يعرضُ لطبيعة بنيةِ الخبرِ في المصنفات التَّجميعيَّة - مقاتل الطّالبيّين خاصَّة - وما ينشعبُ عنها من البنية الخياليَّة والواقعيَّة، والبنية الاعتقاديَّة السّياسيَّة، ثم يتناولُ بالتَّحليل الأشعار التي تضمَّنتها الأخبار، ويُرتِّبها وفق ناظمي الشِّعر من المقتولين أولاً، ثمَّ من أهلهم وذويهم ثانيًا، ثمَّ من الشُّعراء المشهورين والمغمورين من أنصارهم ثالثًا.

بنيةُ الخبر

تتعددُ أنواعُ الخبرِ التَّأريخيِّ بتعدد المضامين التي يحْمِلُها، والمقاصد التي يَنْشُدُها؛ فهناك الخبرُ السِّياسيُّ ذو المضمون السُّلطويِّ حُكْمًا ومعارضةً، وهناك الخبر الأدبيُّ ذو المضمون الإبداعيِّ جودةً ورداءةً، وهناك الخبر الاجتماعيُّ ذو المضمون الإنسانيِّ وصفًا ونقدًا... إلى غير ذلك من الضُّروب التي حفلتْ بها المدوَّنات التُّراثيَّة. وهي على تباينها تشتركُ جميعًا في صفة الخبر من حيثُ احتماله الصِّدق والكذب، كما تشتركُ في زمن الخبر من حيثُ هو ماضٍ حدَثَ وانتهى، فاستحال نصًّا مكتوبًا مقروءًا بعد أنْ كان فعلاً واقعيًّا وحدثًا معيشًا(١).

وتَظهرُ هذه الأخبارُ في المُدوَّناتِ على صورتين: إحداهما صورة مفردة تعرِضُ الخبر في مضمونه الخاصِّ، كالأخبار الخاصَّة بتراجم حيواتِ الخلفاء والفقهاء والأدباء...، أو الأخبار الخاصَّة بحوادثَ محددةٍ مخصوصةٍ مجرَّدة. ومعظم هذه الأخبار تنتحي في سرْدِ مضامينها

---

(١) تستبعد من الوصف الأخير الأخبار الموضوعة والمصنوعة؛ إذ لا يحتويها زمن حقيقي، ولا تصدر عن فعلٍ واقعيٍّ أو حَدَثٍ معيش.

منحى إبلاغيًّا مباشرًا لا تحتاج معه إلى كبيرِ جهْدٍ في تبيُّنِ مدلولاتها وتعرُّف مقاصدها، بيد أنَّها تتطلب ـ كغيرها من الأخبار ـ تمحيصَ صدْقِها وكشفَ كذِبِها، وهو ما يحرصُ عليه دارسها من أهل التَّأريخ.

والثَّانية صورة الجمع أو التَّمازج، وهي تعرضُ لمضامين شتَّى في قالب نصِّيٍّ واحد، فيتقاطعُ فيها السِّياسيُّ مع الأدبيِّ، أو يتقاطعُ فيها الأدبيُّ مع الاجتماعيِّ، أو يتقاطع فيها السِّياسيُّ مع الاجتماعيِّ... وهذه الصُّورة تُبْهِظُ الخبرَ وتجعل مسألة هويته وتميُّزِه مُبهمةً غامضةً لدى طالبي الفوارق المائزة بين النُّصوص خاصَّة؛ فتعدد البنيات فيها ـ شكلاً ومضمونًا وإبلاغًا وبلاغةً ـ يجعلها مزيجًا لنصٍّ جامعٍ متداخلٍ يصعبُ تحديد نوعه وغايته في الوقت نفسه(١).

ودرجتِ العادة في قراءة هذه الأخبارِ على قيام الدَّارس بتحديد اتِّجاهه عند تناولها؛ فإذا كان سياسيًّا وجَّه اهتمامه شطْر الأبعاد السِّياسيَّة فيها، وغضَّ النَّظر عن توجُّهاتها الأدبيَّة وتضميناتها الإبداعيَّة. وإذا كان الدَّارس ناقدًا أدبيًّا وجَّه اهتمامه شطْر الجانب الإبداعيِّ يتفحصه ويُحلِّله مستظهرًا موضوعيَّته وفنيَّته.

ولا يخفى ما قد يُؤدي إليه هذا الفصلُ من شرْخٍ في بنيةِ الخبر؛ فهي على الرَّغم من تعدُّدها يضمُّها تشكيلٌ واحدٌ حرصَ الجامعُ على ائتلافه حرصًا لا يمكن معه فصلُها بدعوى دقَّة التَّخصص وأحاديَّة الغاية، كما لا يمكنُ قبول محاولة تفسيرها بنسقٍ ظاهريٍّ يرفع من قدر المضمون السِّياسيِّ ـ مثلاً ـ ويقلِّل من قدْر الشِّعر ويجعله استئناسًا مُجرَّدًا لا أثر له في الخبر، مغيِّبًا بذلك قيمته الحقيقيَّة ودوره الكبير في القراءة التَّأريخيَّة، قال سعيد الأفغاني: "وأحبُّ أنْ أنبِّه هنا إلى خطأ يوقع كثيرًا من الباحثين في القصور؛ ذلك أنَّهم يكتفون في بحوثهم في التَّأريخ العربيِّ بالمصادر التأريخيَّة فحسب، فتجيء بُحوثُهم على ظِلْعٍ ما تكاد تستقلُّ واقفةً، وكم من حقائق تأريخيَّة خلتْ منها مصادر التَّأريخ وزخرت بها كتب الأدبِ ودواوين الشِّعر"(٢).

وهذا يقتضي التَّعامل مع الخبر على أنَّه بنيةٌ كليَّة واحدةٌ مهما اختلفتْ أشكاله وتنوعت مضامينه؛ فيُصارُ إلى دراسة البنية بكاملها دون تمييز شكْلٍ عن شكْل، أو عزْل مضمونٍ عن آخر، ويُفضي تحقيق ذلك إلى كثير من النَّتائج ذات القيمة، منها: توطيدُ العلاقة البنائيَّة بين الشِّعر

---

(١) لم يعد النُّقاد يشغلون كثيرًا بالتَّحديد النَّوعيِّ للأدب، قال رينيه ويليك: "إنَّ التَّمييز بين الأنواع الأدبيَّة لم يعد ذا أهميَّة في كتابات معظم كتاب عصرنا". انظر، ويليك، رينيه، (١٩٨٧م) مفاهيم نقدية، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، ع١١٠،.ص٣١١. وشكك جيرار جينيت بمعايير الشِّعريَّة وقوانينها، قال: "إنَّ الشِّعريَّة، إذا، علم غير واثق من موضوعه إلى حدٍّ بعيد، ومعايير تعريفها هي إلى حد ما غير متجانسة، وأحيانًا غير يقينيَّة". انظر، جينيت، جيرار، (بدون سنة نشر) مدخل إلى جامع النَّص، ط١، ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية، بغداد. ص١٠. وانتهى دارسو الخطاب من مسألتيِّ النَّوع والأدبيَّة وأنزلوا كل نتاج للكلام تحت مسمى الخطاب، قال تيري إيجلتون: "ورأيي الخاص أنَّ الأكثر فائدة هو رؤية الأدب على أنه اسم يطلقه النَّاس من حين لآخر ولأسباب مختلفة على أنواع معينة من الكتابة ضمن نطاق مجال كامل لما سمَّاه ميشيل فوكو ممارسات الخطاب". انظر، إيجلتون، تيري، (١٩٩٧م) مقدمة في نظرية الأدب، ط٢، ترجمة أحمد حسان، دار نوارة، القاهرة. ص١٧٤.

(٢) الأفغاني، سعيد، (١٩٥٧م) عائشة والسياسة، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. ص٣.

المنظوم والسَّرد الخبريِّ المنثور، وتبيُّنُ دور الشِّعر وضرورة تضمينه السَّرد الخبريَّ، وتبيُّنُ أثر عزْل الشِّعر وإقصائه في بنية الخبر، وتبيُّنُ أثر الخبر في بنية الشِّعر إيجابًا وسلبًا، وتبيُّنُ الفرق بين الدِّلالة النَّصِّيَّة للشِّعر في الخبر ودلالته المجرَّدة كما تُستظْهَر من رواية الدِّيوان.

على أنَّ هذه النَّتائج جميعًا لا يمكن تحسُّسها في الأخبار كلِّها ممَّا اعتاد جامعوها على مزْج المعارفِ الإنسانيَّة بعضها ببعض؛ وذلك يرجع إلى أنَّ منشئي المدونات التي تنتثر الأخبار في ثناياها لا يحملون جميعًا نظرة واحدة إلى قيمة الشِّعر، فمنهم من يُدرك أهميَّته فيأتي توظيفه له مُنسجمًا مع مضامين الأخبار، لا يتخلله تباينٌ ظاهرٌ أو خفيٌّ معها، فيستخدمه شرحًا للخبر، أو تلخيصًا لمجموع أفكاره، أو تقويةً لوجهة نظر[١]، أو ليكون نهايةً مفتوحةً لمضمونٍ جدليٍّ.

ومنهم من يُقحِمُ الأشعار إقحامًا لا يتعرفُ معانيها ولا يُدرك مراميها، لا يدفعه إلى ذلك إلا حرصه على مجاراة طريقة التَّأليف القديمة التي تستدعي في أحايين كثيرة ضمَّ الأشعار إلى الأخبار(٢)، وهي صورة تتبدَّى فيها، إلى درجة كبيرة، قوَّة الشِّعر وسلطته التي طالما فرضها على النَّثر منذ عصره الأول قبل الإسلام، قال التَّوحيديُّ:"ويقال: ما أحسنَ هذه الرِّسالة لو كان فيها بيت من الشِّعر، ولا يقال: ما أحسنَ هذا الشِّعر لو كان فيه شيء من النَّثر؛ لأنَّ صورة المنظوم محفوظة، وصورة النَّثر ضائعة"(٣)؛ فالعقليَّة القديمة لم تكن تستسيغ سماع الخبر دون الشِّعر؛ فهي تنظرُ إليه على أنَّه الوثيقة التَّأريخيَّة الوحيدة التي يُركنُ إليها، قال ابن سلام: "وكان الشِّعر في الجاهليَّة عند العرب ديوانَ علمهم ومُنتهى حُكْمهم به يأخذون وإليه يصيرون"(٤)، وفصَّل الجاحظ ذلك بقوله: "فكلُّ أمَّةٍ تعتمد في استبقاء مآثرها، وتحصينِ مناقِبها على ضرب من الضُّروب، وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليَّتها تحتالُ في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشِّعر الموزون، والكلام المقفَّى، وكان ذلك هو ديوانها"(٥)، وبعد هذا لا يمكن تصوُّر خبرٍ أو حدثٍ دون شعر، يشهد على ذلك أنَّ معظم المؤلفات القديمة ذات النَّسق التَّجميعيِّ التَّوليفيِّ لَمْ تخْلُ من نقل الشِّعر وروايته.

وأيًّا كان أمر الاستخدام الشِّعريِّ في الخبر، فإنَّ ناقد الشِّعر فيه يقف أمام مقصديَّتين: إحداهما شكليَّة تزيينيَّة لا تُعطي الخبر دلالة بنيويَّة فاعلة يمكن أن تؤثِّر في شكله، أو تنسحب على مضمونه. والأخرى مقصديَّة منهجيَّة ضروريَّة يتحرّاها الرّاوي ويستدعيها المضمون، أمَّا المقصديَّة الأولى فيمثِّلها في التُّراث ابن إسحاق في سيرته التي هذَّبها ابن هشام؛ إذ كانت بعض

---

(١) انظر، القيسي، نوري حمودي، (١٩٨٠م) الشعر والتأريخ، ط١، دار الحرية، بغداد. ص١٨.

(٢) انظر، المرجع نفسه، ص٤٠.

(٣) التوحيدي، أبو حيان (بدون سنة نشر) الإمتاع والمؤانسة، ط١، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ـ لبنان. ج٢ / ص١٣٦.

(٤) الجمحي، محمد بن سلام، (١٩٧٤) طبقات فحول الشعراء، ط١، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة. ص٢٤.

(٥) الجاحظ، عمرو بن بحر، (بدون سنة نشر) الحيوان، ط١، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ج١/ ص٧٢.

الأشعار فيها تُروى دون تلمُّس قيمتها في بنية الخبر؛ آية ذلك أنَّ كثيرًا منها كان موضوعًا(١)، والوضع يجعل الخبر مضطربًا، مهلهلاً في مضمونه، مفكَّكًا في بنيته.

ولا تدل عبارة ابن إسحاق الاعتذاريَّة: "لا علم لي بالشِّعر، أتينا به فأحمله"(٢)، على إقلال بضاعته في الشِّعر حسب؛ لأنَّ معظم المؤرخين لا يملكون من أدوات العلم بالشِّعر ما يملكه أربابه، ومع ذلك لم يأتِ تضمينهم الشِّعر على الصُّورة التي جاء بها فعل ابن إسحاق؛ ولذلك فإنَّ عبارته تتَّسع لتدلَّ على عدم قدرته ـ أحيانًا ـ على توظيف النَّصِّ الشِّعريِّ في خدمة الخبر التَّأريخيِّ بحيث يكون الانسجام متحقِّقًا بين مضمون النَّص وواقع الخبر. وإذا صحَّ هذا النَّظر فإنَّ استخدام الشِّعر وفق هذه الصّورة لا يعدو أنْ يكون استخدامًا شكليًّا تزيينيًّا حسب.

وأمَّا المقصديَّة الثَّانية فيمثِّلها الطَّبريُّ في تأريخه إذ كان أكثر وعيًا بقيمة الشِّعر؛ فجاء تضمينه إيَّاه عن تثبُّتٍ ومعرفةٍ تكاد تكون دقيقة بأحواله، جعلت أخباره منسجمةً مع مضامينها ومتَّسقةً في الوقت نفسه ببنية كلِّيَّة تؤالف بينها.

وهاتان المقصديَّتان في الجمع بين الشِّعر والخبَر تصبحان مناط اهتمام النُّقاد؛ فهم يجدون نصَّهم الشِّعريَّ وقد دخل في بنيةٍ أخرى لا ينبغي أن يكون فيها على الأصل؛ فالشِّعر وجِدَ لينْشَدَ، أو ليروى، أو ليدوَّن في ديوان خاصٍّ، ولم يوجد ليكون جزءًا من تأريخٍ سياسيٍّ أو اجتماعيٍّ أو ثقافيٍّ(٣)، وإن كان مضمونه يحتمل أفكار هذه المعارف؛ ولذلك فإنَّ فحص بنية الشِّعر في البيئة الجديدة يُفيد في تحصيل كثيرٍ من التَّفاسير والتَّأويلاتِ التي قد تختلف عند تناول النَّصِّ في بيئته الأصيلة.

بنية خياليَّة وبنية واقعيَّة

تبيَّن أنَّ بنية الخبر التَّأريخيِّ(٤) الكليَّة قد تشملُ بنيات عدَّة من أهمها بنية الأدب (الشِّعر)، وبنية السِّياسة والاجتماع. أو بعبارة أخرى: بنية الخيال التي يمثِّلها الشِّعر، وبنية الواقع التي تمثِّلها المجالات الأخر، وبينهما تضارب في المقاصد والغايات؛ فالشِّعر لا يعنيه التَّأريخ بل لا

---

(١) انظر، الدوري، عبد العزيز، (٢٠٠٠م) نشأة علم التأريخ عند العرب، ط١، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات. ص٨.

(٢) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص٨. يردُّ بعض الباحثين هذا النَّص عن ابن إسحاق؛ فيرى محمد نجيب البهبيتي أنه موضوع عليه، ويُصحِّح بناء على ذلك المرويات الشِّعريَّة التي نقلها في السِّيرة، حتى تلك التي تعود إلى عاد وثمود، ورأيه فيه نظر.انظر، البهبيتي، محمد نجيب، (١٩٨٥م) المدخل إلى دراسة التأريخ والأدب العربيين، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء. ص١٤٠ وما بعدها.

(٣) يرى أرسطو أنَّ الشِّعر أسمى مقامًا من التَّأريخ؛ لأنَّ الشِّعر يروي ما يمكن أن يقع من الأحداث، والتأريخ يروي ما وقع فعلاً، وهذا تمييز خاص بالغاية التي ينتهي إليها مضمون كلٍّ منهما، واختلاف الغاية يدعو إلى التَّناول الفرديِّ لكلٍّ منهما ضرورة، ومن هنا يقع التَّباين وعدم اللقيا بين المعرفتين، ومن ثمَّ تنعدم القيمة التفضيليَّة. انظر، أرسطو، (بدون سنة نشر) فن الشعر، ط١، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت. ص٢٦.

(٤) استعمال لفظة التأريخ استعمال إجرائي، للإشارة إلى الخبر عامة؛ فالسِّياسة والاجتماع في الخبر القديم تظلها الفكرة التَّأريخيَّة بمظلتها.

يعنيه الحدث من حيث هو تجسيد لمعطىٍ واقعيٍّ خارجيٍّ؛ وإنما يُعنى بنقل الإحساس والشُّعور لحظة وقوع الحدث، فتارة يُبالغ، وتارة يُنقِّص، وتارة يُقارب الحقيقة(١).

وعلى الطَّرف الآخر يقف الخبر بدوره مناقضًا الشِّعر، فهو واقع لا يقبل الخيال، أو ما يشبه الخيال مما بولِغَ فيه وكان له أصلٌ واقعيٌّ؛ ومن أجل هذا كان عمل مؤرخ الأخبار الحقيقيُّ يقوم على إقصاء الفعل الخياليِّ الأسطوريِّ الذي قد يلحق بها؛ لما يمكن أنْ يجرَّه هذا الفعل من الطَّعن بها وعدم الاعتراف بمضمونها.

والسّؤال الآن: كيف يتمُّ التَّعامل مع البنيتين آناء قراءة الخبر وتحليله؟ الإجابة عن هذا السُّؤال تقتضي تأكيد حقيقة أنَّ الخبر ضرْبٌ من النَّثر قد يستخدم لغاية أدبيَّة أو غير أدبيَّة، فلا حدود للنَّثر إلا ما يصنعه النُّقاد له صناعة، ومن هنا جاء إدخال معظم النَّثر القديم، على تنوعه، في دائرة الأدب على الرَّغم من أنَّ كثيره لم يكن يبتغي الأدبيَّة وإن كتب بلسان أدبيٍّ بليغ.

وأوضح نورثرب فراي (N. Fraye) هذه الطَّبيعة الثُّنائيَّة للنَّثر، قال: "يستخدم النَّثر، خلافًا للشِّعر، لأغراض غير أدبيَّة أيضًا؛ فهو لا يمتد إلى الحدود الأدبيَّة لكلٍّ من النَّغم والمنظر فقط، **بل إلى الحدود الخارجيَّة لكل من الفعل والنَّظر، أي إلى الفعل الاجتماعيِّ والفكر الفرديِّ نفسيهما**"(٢). ولعلَّ هذه الخاصَّة هي التي جعلت النَّثر دائمًا يقع في المُشْكِلِ النَّوعيِّ للنَّصِّ الأدبيِّ؛ فالطَّبري في تأريخه يستخدم لغة عالية قد ترقى إلى لغة الأدب، وربما تفوق لغات كثير من الأدباء، وابن حجر كذلك في شرحه على صحيح البخاري(٣)، ومع ذلك لم يُصنِّفهما أحد على أنَّهما أديبان، فمقصديَّة التأريخ غلبت على الأول، ومقصديَّة المُحدِّثين غلبت على الثَّاني.

ومثل هذا النَّثر يمكن تسميته بالنَّثر العاطفيِّ الشُّعوريِّ؛ فالنَّزعة الشُّعوريَّة الخالصة القائمة على الإقناع تستحكم عليه، فصاحبه قد يحمل فكرة يؤمن بها أشدَّ الإيمان، ويعارض مخالفها أشدَّ المعارضة، وفي كلتا الحالين يسعى إلى أنْ يُعبِّر عن ذلك تعبيرًا دقيقًا صادقًا يقنع الآخر ويستميله إليه، ولا يجد طريقًا إلى إربته إلا بتلك اللغة التي يبث فيها أقصى مشاعره، فتعمل بذلك على تقريبه من الأدب وليس منه، قال فراي (Fraye): "تتمثل أشد أنواع هذا النَّثر تركيزًا في الكتيب أو الخطبة التي تمسك بإيقاع التَّأريخ وتمسك بحادثة حاسمة أو طور خطير من أطوار الفعل وتفسِّره، **وتعبِّر عن المشاعر المتَّصلة به، أو تستخدم بنية لغويَّة بشكل ما لحصر تيار التأريخ وتوجيهه**"(٤).

---

(١) انظر تمثيلات أرسطو، فن الشعر، ص٨ـ٩.

(٢) فراي، نورثرب، (١٩٩١م) تشريح النَّقد، محاولات أربع، ط١، ترجمة محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمان.ص٤٣٤. [التأكيد من عندي].

(٣) لا يتوقف الأمر عند التَّأريخ والتَّفسير بل ينسحب على جميع المؤلفات القديمة ومنها الفلسفة والتَّصوف. انظر، ناصف، مصطفى، (١٩٩٧م) محاورات مع النَّثر العربي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع٢١٨. ص٣٢٥ـ٣٥٠.

(٤) تشريح النقد، ص٤٣٥. [التأكيد من عندي] إن الموازنة بين لغة المؤرخين القدماء ولغة المؤرخين المحدثين تؤكد المفارقة الكبيرة في القدرة على الاستعمال اللغوي وغايته، وهو ما يمكن إرجاعه، فضلاً عن الموهبة، إلى الاستحكام العاطفي الكبير لدى القدماء في مؤلفاتهم وغيابه عند المحدثين.

وعلى الرَّغم من كون هذا النَّثر يُظهر ضربًا من الأدبيَّة تُمثِّله لغته، لا يزال بمنأى عنها لكونه واقعًا لا خيالاً، فهو ينطلق من المعطيات الموجودة ويحافظ على صورتها الحقيقيَّة، فيفقد بذلك حظَّه من الأدبيَّة خلا تلك البنيَّة اللغويَّة العالية التي تجعله شبيهًا بأنواع اللسان النَّثريِّ من خطبة ورسالة وحكاية... مما كان إثبات مقصديَّته الأدبيَّة ـ دائمًا ـ ضربًا من الإسقاط الخارجيِّ لا يمسُّ طبيعة النَّصِّ ولا حقيقته(١).

وبالنَّظر إلى كتاب مقاتل الطالبيِّين يتَّضح أنَّه من المدوَّنات التَّأريخيَّة التي ضمَّت الشِّعر إلـى جوار الخبر في بنية واحدة(٢) تنشدُ الإقناع، ليأتي تشكيل الكتاب وفق الخطّاطة الآتية:

خبر (واقعي) + شعر (متخيَّل) = سردًا تأريخيًّا واقعيًّا

والنَّتيجة الظّاهرة التي تنتهي إليها الخطّاطة تُبيِّن أنَّ تأثير الشِّعر في البنية الكلاميَّة جاء ضعيفًا؛ إذ بقي النَّصُّ خبرًا واقعيًّا حقيقيًّا، وبقي تصنيف الكتاب ضمن الاتِّجاه التَّأريخيِّ لا الأدبيِّ؛ مما يؤكد أنَّ الشِّعر قد يفقد كثيرًا من تأثيره النَّوعيِّ في التَّشكيل الكلاميِّ إذا خرج عن بنيته الخاصَّة.

إن ضعف البنية التأثيريَّة للشِّعر في النُّصوص الجامعة تجعله ضمن تراتب القوى المعرفيَّة في مرحلة أدنى عن غيره من معارف القوى الأخر، ولا سيما قوَّة التَّأريخ والفلسفة والأديان، غير أنَّ هذا يقتصر على التَّأثير في بنية النَّصِّ الظّاهريَّة لا في مضمونه ومعناه، فالتَّشكيل النَّوعيُّ للنُّصوص تصوُّرٌ خارجيٌّ لها لا يكشف عن معانيها وأفكارها، إنَّه عمليَّة فرزٍ كلاميٍّ ينتهي وجودها عند بدء البحث في مضامين الفكر النَّصِّيِّ وأثر الشِّعر فيه، فالكاتب لا يمكن أن يُضمِّنَ الخبر شعرًا دون أن تكون له وظيفة تخدمه وتفيده في تشكيله المعنويِّ، قال إليوت (T.S Eliot): "عندما أقول إنَّ الشِّعر أكثر من النَّثر تعلُّقًا بالتَّعبير عن الانفعال والشُّعور فإنني لا أعني أنَّ الشِّعر لا يحتاج إلى أن يكون له مضمون أو معنى فكريَّان"(٣)، ومن هنا تتَّضح ضرورة ظهور وعي الكاتب بأهميَّة الشِّعر في تأصيل الفكر والدِّفاع عنه.

ولمَّا كان النَّاقد الأدبيُّ يتَّجه إلى الخبر من منظوره الأدبيِّ فإنَّ ذلك يستدعي منه قراءة مغايرة للقراءة النَّصِّيَّة التَّقليديَّة، فهو أمام خبر يحتوي شعرًا، ولا يوجد تحديد ظاهر لأيِّهما المقصود، ومن ثمَّ يصبح المنطلق في التَّحليل معمًّى بادئ الأمر؛ لأن أيَّ تفضيل بين الاثنين

---

(١) يصنف بعض النقاد هذا التأليف تحت ما يسمى (الأدب التطبيقي)، ويعرِّفه بكونه "المؤلَّف الذي نستطيع أن نعتبره أدبًا، إذا غضضنا النظر عن غرض المؤلف؛ فالشَّيء الذي أراد المؤلف أن يجعله وسيلة لغاية، يصبح في نظرنا هو الغاية بعينها". غير أنَّ اهتمام النُّقاد توجه عمليًّا نحو الأدب الصِّرف الذي تتَّحد فيه النَّظرة اللغويَّة والمقصديَّة في الاتِّجاه الفنِّيِّ ليس غير. انظر، كرومبي، لاسل آبر، (١٩٨٦م) قواعد النقد الأدبي، ط٢، ترجمة محمد عوض محمد، دار الشؤون الثقافية، بغداد. ص١٩ وما بعدها.

(٢) لم يُشرِ الأصفهاني في مقدمة مقاتل الطّالبيين إلى الشِّعر ولا إلى منهج تضمينه، ويبدو أن ذلك يرجع إلى أنَّه كان سنَّة تأليفيَّة اعتاد عليها المؤلفون، فلم يجد حاجة إلى ذكر الحديث عن الشِّعر الذي امتلأ به كتابه. انظر، الأصفهاني، علي بن الحسين (بدون سنة نشر)، مقاتل الطّالبيين، ط١، تحقيق السَّيِّد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة. ص ٣ـ٥.

(٣) إيليوت، ت س، (١٩٩١م) في الشعر والشعراء، ط١، ترجمة محمد جديد، دار كنعان، دمشق. ص ١٥.

يُعطي أحدهما الأهميَّة على الآخر؛ مما يؤكد حقيقة أنَّ البنية الخارجيَّة شكليَّة لا تعطي قيمة للكلام إلا قيمة تصنيفيَّة ظاهريَّة.

والسَّير في التَّحليل أدبيًّا يجعل من الشِّعر مركزًا ومن السَّرد الخبريِّ هامشًا، وهو هامش شارح لكونه المناسبة التي نُظِمَ الشِّعر من أجلها، ولا يعني هذا أن يُكبِّل النّاقد نفسه في ضوء المناسبة، فقد يقول الشِّعرُ شيئًا لا تقوله المناسبة؛ ذلك أنَّ الكثافة الشعريَّة أكثر عُمْقًا من الكثافة النَّثريَّة(١).

بنية اعتقاديَّة سياسيَّة

ولا تقف بنيات كتاب مقاتل الطّالبيّين على بنيتي الخبر والشِّعر، بل تنسحب إلى بنية معنويَّة تحيط به وتسيطر على أخباره وأشعاره وتُسيِّرهما لخدمتها، ولعلَّها السَّبب وراء هذا المزيج المتداخل في الكتاب؛ فالأصفهانيُّ كان شيعيَّ الهوى يتوخى خدمة معتقده الدِّينيِّ وفكره السِّياسيِّ المنبثق عنه، فجاء الكتاب عرضًا لصراعات رجالات المعتقد ومقاتلهم، وأحزان من والاهم وتشيَّع لهم، قال: "ونحن ذاكرون في كتابنا هذا، إن شاء الله وأيد منه بعون وإرشاد، جملاً من أخبار من قُتِل من ولد أبي طالب منذ عهد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الوقت الذي ابتدأنا فيه هذا الكتاب..."(٢).

فلم يكن صاحب الكتاب ومعتقده بعيدين عن التَّوجه السِّياسيِّ؛ إذ إنَّ أخبار المقتولين لم تكن أخبارًا اجتماعيَّة أو سِيَرًا أدبيَّة، بل كانت أخبار أناس لهم تصورات سياسيَّة أظهرها الصِّراع بين ثلاث طوائف: الأمويِّين، والعبّاسيِّين، والشّيعة، وجميعهم كانوا يسعون إلى الظَّفر بالحكم والسُّلطة، ولذلك فإنَّ زمن القتل محصور في إرهاصات الحقبة الأمويَّة وخلافتها، والعهد العبّاسيِّ وخلافته(٣)، وهما العهدان اللذان كان الصِّراع فيهما على الحكم والخلافة على أشدِّه، قال عارضًا طرق القتل: "ومن احتيل في قتله منهم [أي الطّالبيّين] بسُمٍّ سقيه وكان سبب وفاته، ومن خاف السُّلطان وهرب منه فمات في تواريه، ومن ظُفِرَ به فحبس حتى هلك في محبسه"(٤).

وهذه الطرق من وسائل السِّياسة في تصفية خصومها، وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ أخبار الكتاب هي أخبار سياسيَّة؛ مما يستدعي التَّعامل معها وفق هذا المنحى، لتصبح العلاقة أشدَّ وضوحًا بين بنية الشِّعر وبنية الخبر.

---

(١) يرى إدوارد سعيد ضرورة الاستعانة بالمناسبة في تحليل النَّصِّ، مسترشدًا بذلك بما قدمته المدرسة الإسلاميَّة الظّاهريَّة في الفقه واللغة، وهو بذلك يردُّ على الدّاعين إلى تعدد القراءة تعدُّدًا غير متناهٍ، ويبدو أنَّ الفريقين قد جانبا الصواب، أحدهما بالقصور والآخر بالغلو، وفعلهما هذا شبيه بالنِّزاع القديم بين علماء الكلام والظّاهريين، فقد بالغ بعضهم بالتَّأويل، وبالغ الآخرون بالتَّسليم الظّاهريِّ. انظر، سعيد، إدوارد، (٢٠٠٠م) العالم، النَّص، النّاقد، ط١، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق. ص٤١ وما بعدها.

(٢) المقاتل، ص٤.

(٣) خلا مقتل جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، فهو في عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

(٤) المقاتل، ص٥.

ومن جهة أخرى تؤكد عاطفتُه التَّأليفيَّة البنيةَ الاعتقاديَّة السِّياسيَّة للكتاب؛ فقد عمل على انتقاء أخبار المقتولين وتنقيتها بحيث يصوِّر أرباب المعتقد تصويرًا إيجابيًّا يبعث الأسى والحزن، ويُعمِّق حجم الظُّلم الذي وقع عليهم، قال: "ومقتصرون في ذكر أخبارهم على من كان محمود الطريقة سديد المذهب، لا من كان بخلاف ذلك، أو عدل عن سبيل أهله ومذاهب أسلافه، أو كان خروجه على سبيل عَيْثٍ وإفساد"(١).

مراتب الشِّعر والخبر

يتمازجُ الشِّعرُ والخبرُ في مقاتل الطّالبيّين وفق مراتبَ مختلفةٍ يضبطُها الرّوح العاطفيُّ الذي كان يغلبُ على الأصفهانيِّ آناء الكتابة، فتارة كانت تأخذه الغايةُ التَّأريخيَّة الخالصة فيبتعد عن تضمين الشِّعر، وتارة كانت تنتهره نفسه الأدبيَّة فيخفِّف من سَورتها بشيء من الشِّعر يستنطق به أصواتًا عدة؛ فيظهرُ صوتُ المقتول ليبوح بأبيات ينظمها بنفسه أو يستظهرها من محفوظه، ويظهرُ صوتُ أهل المقتول وقرابته سالكًا مسلك سابقه، ويظهرُ صوتُ المؤلف ممثَّلاً باختياراته الشِّعريَّة التي ألفاها تُناسبُ الحدث، وظاهرٌ ما قد يحمله تباين هذه الأصوات من تعدُّدٍ في دلالة الشِّعر وإيحاءاته السّياسيَّة والفكريَّة عند الكاتب والقارئ على السَّواء، وتفصيل ذلك على النَّحو الآتي:

١. الشِّعر للمقتول

لم يكنِ الأصفهانيُّ يقصدُ قصَّ حوادث المقتولين قصًّا تأريخيًّا خالصًا، يتتبع فيه الحادثة ويعرض تفاصيلها حسب؛ فهذا يمنح نمط القصص لديه ضربًا من التّأليف يجعله متنًا تأريخيًّا جامدًا هو أقرب إلى عمل المؤرخ منه إلى عمل (الأديب المؤرخ)؛ فغاية الكتاب الحقيقيَّة ـ كما سبق بيانه ـ تسعى إلى حشد ميول النَّاس وعواطفهم تجاه شخوص تأريخيَّة معيَّنة؛ لذا كان لا بد أن يُجريَ الشِّعرَ على لسانهم ليكون أكثر تأثيرًا في المتلقي، وأكثر دقَّةً في عرض قضاياهم وبيان صراعاتهم؛ ويصبحُ الشِّعر في هذه الأحوال تعبيرًا عن الحسِّ العاطفيِّ لدى الطّالبيِّ بعد أن تستشعر نفسه عِظَم القهر والظُّلم الواقعيْنِ عليه، فيجده متنفَّسًا له يفزع إليه واصفًا وشاكيًا ومتظلِّمًا.

روى الأصفهانيُّ خبرًا عن موسى بن عبد الله بن الحسن، قال(٢): "أرسل أبي إلى أبي جعفر: إنِّي كاتبٌ إلى محمد وإبراهيم، فأرْسِلْ موسى عسى أنْ يلقاهما، وكتب إليهما أنْ يأتياه، وقال لي: أبْلِغْهما عنِّي فلا يأتيا أبدًا، وإنَّما أراد أنْ يُفْلِتني من يدِه [يد أبي جعفر]، وكان أرقَّ النَّاس عليَّ، وكنت أصغرَ ولَدِ هنْد(٣)، وأرسل إليهما:

---

(١) المصدر نفسه، ص٥.

(٢) المقاتل، ص٢٢٤.

(٣) هي: هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب، زوج عبد الله بن الحسن، وله فيها أبيات شعر، انظر ذكرًا لها في ترجمة محمد بن عبد الله بن الحسن، المقاتل، ص٢٣٢ وما بعدها.

يا بْنَي أميَّة إنِّي عنْكما غـانٍ وما الغنى غير أنِّي مُرْعَشٌ فانِ(١)
يا بْنَي أميَّة إلا ترْحما كِبَـري فإنَّمـا أنتمـا والثُّكْلُ مِثلانِ

ويلاحظ على الخبر البنية المركَّبة التي تقتضيها الحُبْكة الدراميَّة فيه، فهي تتسلسل على النَّحو الآتي:

- إرسال عبد الله بن الحسن رسالة إلى أبي جعفر المنصور ينبئه فيها بموافقته على تسليم ولديه له.
- ويطلب من أبي جعفر أن يرسل أخاهم موسى المأسور لديه ليلقاهما.
- ويكتب عبد الله بن الحسن إلى ولديه أن يأتيا.
- ويأمر موسى أن يبلغهما ألا يأتيا أبدًا.
- والغاية من هذا كله هو الخدعة ليفكَّ أسر موسى من يد أبي جعفر المنصور.

غير أنَّ مضمون رسالته إلى ولديه ـ وقد جاء شعرًا في نهاية الخبر ـ يُحيل على معنى مغايرٍ لمعنى الخُدعة التي تصدرُ عادة عن قوَّةٍ وجراءةٍ لا تأبه بالمُخْتدَع وإنْ كان خليفة كأبي جعفرٍ المنصور، فألفاظ (مرعش، فان، ترحما، كبري، الثكل) تؤكد الضَّعْف والوهْنَ الذي لحقه بعد افتراق ولديه عنه؛ ممَّا يعملُ على تخفيف المعاني السّياسيَّة التي يحملها الخبر من طلب المنصور ولديه، وأسْر الثالث، ثم اختداعه للمنصور لينجِّيَهم جميعًا.

لقد جاء الشِّعرُ ليؤثِّر في مضمون الخبر بعد أنِ استعاد ـ من أجل وصف حال صاحبه ـ شعرًا قديمًا لأميَّة بن الأسكر(٢)، وهذا يحتمل تأويلين: الأول أنَّ عبد الله بن الحسن في تضمينه شعر أميَّة أراد أن يُصوِّر وضعه وما آل إليه من ضعف هو أشبه ما يكون بضعف أميَّة بعد كِبَره؛ فقد روى الأصفهانيُّ أن أميَّة "عُمِّر طويلاً حتى خرِف، فكان ذات يوم في نادي قومه وهو يُحدِّث نفسه، إذ نظر إلى راعي ضأنٍ لبعض قومه يتعجب منه، فقام لينهض فسقط على وجهه فضحك الرّاعي منه وأقبل ابناه إليه"(٣)، وأنشد الأبيات؛ فيكون التَّضمين على هذا التأويل مباشرًا يقصد منه الاستشهاد بالأبيات لا غير(٤).

---

(١) مُرْعش: الذي يرتعد ويرتجف من الكِبَر.

(٢) هو أميَّة بن الأسكر شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وكان من سادات قومه وفرسانهم، مات في خلافة عمر رضي الله عنه، انظر ترجمته، الأصفهاني، علي بن الحسين (بدون سنة نشر)، الأغاني، ط٢، دار الفكر، بيروت. ج١٠/ ص١٤.

(٣) الأغاني، ج١٠/ ص١٨-١٩

(٤) قد يحتمل التَّضمين تأويلاً آخر مؤداه أن الأبيات وسيلة لاختداع أبي جعفر، فيظهر فيها الطّالبيّ مدى ضعفه ليعود إليه ولداه، وهذا قد يكون صحيحًا فيما لو كان الخليفة مطّلعًا عليها، وهذا ما لم يصح.

والثّاني أنَّ هذا التَّضمين لم يكن مباشرًا بل كان عبر وسيط وهو الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ الذي كان معجبًا بشعر أميَّة وتمثَّل أبياته في خطبة له، فيكتسب بذلك دلالة أعمق؛ إذ إنَّ تابع المعتقد يتقفَّى دائمًا آثار متبوعه ويتتبع خطاه في قوله وعمله، فإذا استشهد الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ بشعر أميَّة بن الأسكر فإنَّ التَّابع سيستشهد بهذا الشِّعر ضرورة، لا لأنَّه صادر عن أميَّة بل لأنَّه صادر عن الإمام المتبوع، فيصبح التَّضمين عبر وسيط، وهو ما يمكن تسميته التَّضمين الاعتقاديُّ(١).

وإذا صحَّ هذا التَّصور فإنَّنا نكون أمام مناسبتين: إحداهما المناسبة الحقيقيَّة التي قيل فيها الشِّعر، والثّانية المناسبة التي حوكي فيها الشّاعر أول مرَّة، وبينهما تباين؛ فقد روى الأصفهانيُّ(٢) أنَّ الإمام عليًّا، رضي الله عنه، صعد المنبر في الكوفة، وخطب في النَّاس، حتى اعترض عليه الأشعث بن قيس، فوبَّخه الإمام توبيخًا شديدًا، ثم استشهد ببيت من أبيات أميَّة، قال فيه:

أصبحتُ قِنًّا لراعي الضَّأنِ يلعبُ بي ماذا يَريبـكُ منِّي راعـيَ الضّان(٣)

والظّاهر أنَّ استشهاد الإمام علي جاء من جهة توبيخ المعترض عليه وتقريعه على فعله، أما استشهاد الطّالبيِّ فكان من أجل بيان الحال، بدليل عدم انطباق أبيات أميَّة الأولى على حال الإمام عليٍّ، بينما تنطبق كاملة على حال الطّالبيِّ.

ويكون الجمعُ بين المناسبتين من خلال سعي صاحب الخبر إلى محاكاة متبوعه محاكاة اعتقاديَّة، عن طريق تمثُّل استشهاداته الشِّعريَّة، ثم الإحالة على المناسبة الأولى التي تتضح فيها الدِّلالات التي رغب صاحب الخبر بإيصالها، وهي دلالات الضَّعف والوهن.

ويبدو أنَّ الضّعف قد نال من الطّالبيّين في صراعهم مع العبّاسيّين، فأخذت مظاهره تظهر في أشعارهم بجلاء، روى الأصفهانيُّ خبرًا مؤداه أنَّ(٤) "الحسن بن معاوية قال لأبي جعفر، وهو في السِّجن، وقد أتاه نعي أخيه يزيد بن معاوية، يستعطفه على ولده:

ارحمْ صغارَ بني يزيدٍ إنَّـهُـمْ يتمـوا لفقْـديَ لا لفقْدِ يزيدِ
وارحمْ كبيرًا سنُّه متهـدِّمًـا في السِّجن بين سلاسلٍ وقيودِ
ولئنْ أخذتَ بجُرْمنـا وجَزيْتَنا لنُقتَّلَـنَّ بـه بكلِ صعيـدِ
أوْ عُدْتَ بالرَّحِمِ القريبةِ بيْننا مـا جـدُّكم من جدِّنا ببعيـدِ

---

(١) التَّضمين الاعتقاديُّ: يمكن أن يعدَّ من أنواع التَّضمين، وله طريقان: إمّا التَّضمين المُباشر مع المتَّفق معه في المعتقد، وإمَّا التَّضمين غير المباشر عبر الوسيط الذي يملك مرجعيَّة اعتقاديَّة مقبولة لدى الأتباع، وأيُّ تضمين له مع غيره يأخذه التّابع لكونه صدر عنه حتى أصبح محسوبًا له لا لصاحبه الحقيقيِّ.

(٢) الأغاني، ج١٠/ ص١٩-٢١.

(٣) القنُّ: العبد.

(٤) المقاتل، ص٣٠٣.

وجاء هذا الخبر بأَخَرَةٍ في ترتيب أخبار الحسن بن معاوية لا يليه سوى مراثي الشُّعراء في محمد بن عبد الله بن الحسن، وهو خبر تحتويه مناسبة نعي أخيه يزيد، فيهبُّ المحبوس مستعطفًا أبا جعفر، لعله يجد منه عفوًا فخروجًا من الحبْس(١).

ونراه تدرَّج في الاستعطاف من العامِّ إلى الخاصِّ، فعرض أولاً لأحوال الأبناء بعد فقْدِ والدهم وسجن عمِّهم، ثم عرض ثانيًا لحاله التي آلت إلى الكِبَر والهرم، ثم عرض ثالثًا لجُرْمه مُقرًّا به وأنه سوف يؤخذ به في كل مكان، ثم عرض رابعًا لواجب العفو وهو صلة القرابة بينهما.

ويختلف مضمون الشِّعر الاستعطافيِّ عن مضمون سيرة الحسن ومجاهدته للعبّاسيّين وصبْره على عذاباتهم، فلمْ يظهر منه ذلك الصَّوت الثّائر المتمرِّد وإنَّما ظهر الصَّوت الخافت المُنْكَسِر، ولعلَّ ذلك يرجع إلى كِبَر سنِّه وعدم مقدرته على المجالدة كما فعل في ميعة الشَّباب.

ويُؤيِّد هذا النَّظر تلك الألفاظ التي استعملها (ارحم، صغار، يتموا، ارحم، كبيرا، الرَّحم)، وهي تتعارضُ مع أخبارٍ له في الثَّورة والمعارضة، روى الأصفهانيُّ أنَّ أبا جعفر "كتب إلى جعفر بن سليمان أن يَجْلِدَ حسنًا إنْ ظفر به، فلما سأله عن المال، قال: أنفقناه فيما كنّا فيه، وذاك شيء قد عفا عنه أمير المؤمنين، قال: وجعل جعفر يكلِّمه، والحسن يُبطئ في جوابه، فقال له جعفر: أكلِّمك ولا تجيبني! قال: ذلك يشقُّ عليك، لا أكلِّمك من رأسي كلمة أبدًا. قال: فضربه أربعمئة سوط وحبسه"(٢).

وتستمر مظاهر الضَّعف في أشعار الأخبار فروى الأصفهانيُّ أنَّ محمد بن عبد الله قال: "بينا أنا برضوى مع أمِّ ولدٍ لي، معها ابن لي تُرضعه، إذا ابن (استوطا) مولى لأهل المدينة قد هجم علَيَّ في الجبل يطلُبُني، فخرجت هاربًا وهربت الجارية فسقط الصَّبيُّ منها، فتقطَّع، رحمة الله عليه"(٣).

وألحق الأصفهانيُّ هذا الخبر خبرًا آخر مُتَّصلاً به ينقل شعرًا قاله صاحب الخبر، فروى أنه(٤)" لمَّا سقط ابن لمحمد فمات، ولقي محمد ما لقي، قال:

مُنْخَرِقُ الخفَّينِ يشْكو الوجى   تنْكُبُه أطْرافُ مروٍ حدادِ(٥)
شرَّده الخوفُ فأزرى بهِ   كذاك منْ يكْرهُ حرَّ الجِلادِ
قدْ كان في الموتِ له راحةٌ   والموتُ حتْمٌ في رقابِ العبادِ

---

(١) لم ينجح في استعطافه، وبقي محبوسًا حتى وفاة المنصور، وخرج في عهد المهدي. انظر، المقاتل، ص٣٠٠، ٣٠٢.

(٢) المقاتل، ص٣٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٣١

(٥) الوجى: الحفا أو شدة الحفا.

إنَّ مضمون الخبر السَّرديِّ متعلِّقٌ بالكيفيَّة التي مات بها أحد أبناء محمد بن عبد الله، لكنَّ البنية الدّاخليَّة للخبر تُعطي دلالاتٍ مختلفةً لعل أهمَّها تلك المطاردة التي كان يلقاها الطالبيُّ من العبَّاسيِّ، ومحاولته الدّائبة على التَّخفي والمواراة، ومن ثمَّ الهرب إذا ما كُشف أمره، ويؤكد الشِّعر هذه البنية فهو لم يرثِ ولده ولم يظهر شيئًا من الجزع أو التَّفجع والحسرة عليه، وإنما استحضر هذه الأبيات شاكيًا فيها حاله وما آلت إليه نفسه.

والحال نفسها من الشِّكاية نراها في خبر لابن محمد بن عبد الله، فقد روى الأصفهانيُّ أنَّه(١) "لمَّا قُتل محمد [بن عبد الله]، خرجنا بابنه الأشتر عبد الله بن محمد، فأتينا الكوفة، ثم انحدرنا إلى البصرة، ثم خرجنا إلى السِّند، فلمّا كان بيننا وبينها أيام نزلنا خانًا فكتب فيه:

مُنْخَرِقُ الخفَّينِ يشْكو الوجى   تنْكُبُـه أطْرافُ مـروٍ حدادِ

شرَّده الخـوفُ فـأزرى بـهِ   كـذاك مـنْ يكْرهُ حرَّ الجِلادِ

قدْ كان في الموتِ له راحـةٌ   والموتُ حتْمٌ في رقابِ العبادِ

وكتب اسمه تحتها".

ولا يسْردُ الخبرُ معانيَ ذاتَ بالٍ سوى ذلك التَّنقل من الكوفة فالبصرة فالسِّند، وهو تنقُّل الفرار بما يشوبه من الهمِّ والخوف، وقد عبَّر الشِّعر عن هذه الأحاسيس، فالتَّطابق واضح بين دلالة الخبر ودلالة الشِّعر.

وعلى هذا، يتبيَّن التَّشابه بين مناسبتي الأبيات، فالخبران تضمَّنا الشِّعر في مناسبة واحدة هي الفرار من الخصوم، لكنَّ العودة إلى فكرة التَّضمين الاعتقاديِّ تظهر معنى مُخالفًا إلى حدٍّ ما؛ فصاحبا الخبرين يستحضران الأبيات نفسها التي أنشدها زيد بن علي بن الحسين عند دخوله على هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: "بلغني أنَّك ترومُ الخلافة وأنت لا تصلُحُ لها؛ لأنَّك ابنُ أمَةٍ؟ قال زيد: فقد كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابنَ أمة، وإسحاق ابنَ حُرَّة؛ فأخرج اللّه من صُلب إسماعيل خيرَ ولد آدم، فقال له: قُمْ، فقال: إذًا واللّه لا تراني إلاّ حيثُ تَكْره، فلمّا خرج من الدّار، قال: ما أحبَّ أحَدٌ الحياةَ قطُّ إلا ذلَّ..."(٢) وكان كثيرًا ما يُنشد الأبيات السابقة.

إنَّ الأخذ بهذه الإحالة يُعطي دلالةً على تأنيب النَّفس ودفعها للحرب والقتال بدل الهرب والفرار، ويؤكِّد ذلك سرْد الخبر عن زيد بن علي وما يحتويه من التَّقليل من شأن الحياة وقيمتها، كما يؤكِّد ذلك الشِّعر نفسه؛ فالأبيات أيضًا تحملُ معانيَ تأنيب النَّفس لخشيتها من المواجهة على الرَّغم من أنَّ الموت واقعٌ عليها غير مدفوع. وبهذا يكون الشِّعر قد غيَّر تغييرًا كبيرًا في دلالة الخبرين، فمن التَّعداد للتَّنقل المكانيِّ وما يلحقه من صور الضَّعف والخوف، إلى تحفيز النَّفس إلى عدم تعلُّقها بالدُّنيا التي تذلُّ الإنسانَ ولا تأخذُ به إلى العزَّة.

---

(١) المقاتل، ص٣١١.

(٢) الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني (١٩٩٧م) زهر الآداب وثمر الألباب، ط١، تحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت. ج١/ ص٨٥.

ولم يتوقفِ التَّضمينُ الشِّعريُّ على صورة الضَّعف حسب، بل تعدّاه إلى إظهار صورة القوَّة في نفسِ الطّالبيِّ، فقد روى الأصفهانيُّ خبرًا عن عبد الله بن موسى أنَّه قال(١): "أتيت عمي يحيى بن عبد الله بعد انصرافه من الدَّيلم وبعد الأمان، فقلت: ما بعدي مُخبَرٌ ولا بعدك مُخْبِرٌ، فأخبرني بما لقيت، فقال: ما كنت إلا كما قال حُييُّ بن أخطب اليهوديُّ:

لعمرُكَ ما لامَ ابنُ أخطبَ نفسَهُ ولكنَّ منْ لا يَنْـصُرِ الله يُخْذَلِ

فجاهدَ حتى أبلغَ النَّفسَ عذْرَها وقلقلَ يبغي العزَّ كلَّ مُقلقَلِ

وبنيةُ الخبرِ هنا لا تكتملُ إلا مع الشِّعر؛ فالبنية الشِّعريَّة هي التي تقومُ عليها دلالة الخبر، على الرَّغم من كونها غير مقصودة في السُّؤال، بمعنى أنَّ السّائل لم يكن يريدُ الإجابة شعرًا، بل أرادها نثرًا تفصيليًّا بدليل عبارته (ما بعدي مُخبَرٌ ولا بعدكَ مُخبِرٌ) فقد أراد منه أنْ يخبرَه بكلِّ شيء حدث معه ولقيه في صراعه مع العبّاسيّين، لكنَّ الطّالبيَّ يختصر كلَّ ذلك شعرًا ويُحيل سائله على أبيات الرَّجل اليهوديِّ بعد أنْ وجدَها مُلخِّصةً لحاله.

والغريبُ من الطّالبيِّ أن يستشهدَ بأبيات اليهوديِّ في عرض حاله، ولا سيَّما أنَّ مناسبة هذه الأبيات كانت في رثاء حُييِّ بن أخطب بعد غزوة بني قريظة، فجاء في سيرة ابن هشام(٢): "أُتي بحُيَيّ بن أَخْطَبَ عَدو الله وَعَليه حُلَّة له فقاحيَّة- قالَ ابن هشام: فقاحيَّة ضرب من الوشي- قد شقها عليه من كل ناحية قدر أُنملة أنملة لِئلا يُسْلَبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل. فلمّا نظر إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: أَما والله ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولكنَّه من يخذل اللهُ يخذل، ثم أَقبل على النَّاس، فقالَ: أَيها النّاس إنه لا بأْس بأَمر الله، كتاب وَقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيلَ، ثم جلس فضُربتْ عنقه"، وأنشد جَبَلُ بْنُ جَوّالٍ الثّعْلَبِيّ[٣] الأبيات في رثائه.

ويمكن أنْ يُعدَّ هذا من غرائب التَّضمينات الاعتقاديَّة؛ إذ لا مسوّغ للطالبيِّ ليستشهد بهذه الأبيات التي تستحضرُ معها تلك المقتلة العظيمة التي لحقتْ باليهود جرَّاء نُكْثِ عهدهم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على هذا ينزِّلُ نفسه وقومه منزلة الخصم المعادي السَّيِّء لا منزلة الخصم طلاب الحقِّ، فالمناسبتان تتعالقان لكنهما تتعارضان اعتقاديًّا، فاليهوديُّ كان خصمه الرسول الكريم عليه السَّلام، والطّالبيُّ كان خصمه العبّاسيُّ، ولم يترك اليهوديُّ وسيلة لمحاربة النَّبي إلا واستعملها، وكذلك الطّالبيُّ مع العبّاسيِّ، فيكون تمثيل الصورة على النَّحو الآتي:

اليهوديّ(منهزم) ـــ الرّسول صلى الله عليه وسلم(منتصر)

---

(١) المقاتل، ص٤٦٩.

(٢) ابن هشام،عبد الملك الحميري (١٩٩٦م)، السيرة النبوية، مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلبي، ط١، دار الخير دمشق ـ بيروت. ج٣/ص١٨٩- ١٩٠.

(٣) هو جبل بن جوال الثعلبي، كان يهوديًا فأسلم، وكانت لـه صحبة. انظر، ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (١٤١٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الجيل، بيروت. ج١/ ٤٥٤.

الطّالبيّ(منهزم) ـــ العبّاسيّ(منتصر)

فتَشَابَهَ الاثنان في فشلهما بتحقيق الانتصار أمام الخصم، كما تَشابَها في التَّضحية من أجل المبدأ والمعتقد، وهو تشابه كان على الطّالبي أن ينزِّه نفسه عنه، ولا سيما أنَّ المنتصر هو على الحق وعدوَّه على الباطل، وهو من جهة أخرى اعتراف غير مباشر بأنَّ عدوَّه كان على الحق، فضلا عن ذلك فإنَّ خصم النَّبيِّ كان خصمًا لدودًا يتحين الفرص حتى يقضي على النَّبيِّ ودعوته، ومن تمام البراءة الاعتقاديَّة عند الطّالبيِّ أن يبتعد عن تضمين شعر قيل في رثاء عدو من أعداء من يستمد منه شرعيَّته في سعيه لحيازة السلطة.

إنَّ المناسبة التي استرجعتها الأبيات تفيد هذا التَّأويل، ولا يستطيع المؤول للشِّعر أن يعزله عن مناسبته، أو أنْ يغضَّ الطرْف عنها، ولا سيَّما عندما يكون الأمر على صلة وثيقة بالتَّوجهات السِّياسيَّة الاعتقاديَّة.

٢. الشِّعر لذوي المقتول

جاء شعر ذوي المقتولين في معرض الرِّثاء لهم والتَّحسر عليهم بسبب ما أصاب ذويهم على يد عدوهم من قتل وحبْس وتشريد، واتَّخذ لذلك بنية مختلفة عمَّا سبق، فهو ترتيبًا يأتي في نهاية الأخبار الخاصَّة بالطّالبيِّ، وموضعه هذا يتوافق وطبيعة الرِّثاء من حيث هو تعبيرٌ عمَّا مضى وانتهى؛ ممَّا يعني أنَّ الأخبار التي سبقته ينبغي أن تتلاحم جميعًا لتُشكِّل بنية واحدة يجمعها مضمون واحد، لكنَّ ذلك لم يحدث، فالأشعار جاءت لتبيِّنَ وصفًا عامًّا يمكن أن ينطبق على أحوال الطّالبيّين جميعها منذ نشأة دعوتهم حتى تعرضهم للقتل من أجلها؛ فهي لا تمنح الأخبار أيَّ خصوصيَّة يمكن أن تُميِّزها عن غيرها، روى الأصفهانيُّ في رثاء عبد الله بن الحسن(١) " قال إبراهيم بن عبد الله ... يذكر أباه وأهله وحبْسهم:

ما ذكْرُكَ الدِّمْنةَ القَفار وأهـ ـلَ الدّار ما نأوا عنْك أو قرُبوا
إلا سَفاهًا وقد تَفرَّعُكَ الـ شِّيبُ بلون كأنَّه العُطُبُ(٢)
ومرَّ خمسون من سنيْكَ كما عدَّ لك الحاسبون إذْ حسَبوا
فعدِّ ذكْرَ الشَّباب لسْتَ له ولا إليكَ الشَّبابُ ينْقلِبُ

تبتدئ الأبيات بذكر الدِّيار وبيان حال المرثيِّ من كِبَر سنِّه وذهاب شبابه، وهذا المبتدأ الشِّعريُّ لا يتصل بروح الأخبار السّابقة له، التي يدور سرْدها حول مطالبة أبي جعفر المنصور عبد الله بن الحسن بضرورة شخوص ولديه إليه (محمد وإبراهيم)، ثم نهاية عبد الله ومقتله.

---

(١) المقاتل، ص ٢٢٨.
(٢) العُطُبُ: القطن.

إنَّ الشِّعر يحول الخبر من دلالة إلى دلالة، من حقيقة الصِّراع إلى ضرورة التَّسليم بالموت والقتْل؛ لأن الأجل قرب بعد ظهور أماراته، ففكرة العجز المفضية إلى الموت تتعارض وسيرورة الصِّراع لعبد الله بن الحسن كما تُبيِّنُها الأخبار مجموعة.

ولا يكتفي الشّعر ببيان صورة العجز فقط، بل إنه يبتعد أكثر ليصوِّر الحزن والأسى، وهو حزن اعتياديٌّ مطَّرد في كل أخبار من قتلوا من الطّالبيّين، انظر قوله(١):

إنِّي عرتْني الهمومُ واحْتضَرَ الـ   ـهمُّ وسادي والقلبُ مُنْشَعِبُ
واستخرج النّاس للشِّفاء وخلِّـ   ـفتُ لدهرٍ بظهْره حَدَبُ
أعوج استعْدتِ اللئامُ به   ويحتويه الكرامُ إنْ شَرِبوا

فأثر القتل وما استصحبه من الذلة والهوان توقف عند الهمِّ وبيان معايب الدَّهْر، وهو شعور أقرب ما يكون إلى الهروب من حقيقة الأمر؛ ففكرة الصِّراع لا يمكن أن تحتمل إلقاء مشكلاتها على شيء خارج ميدانها، ولا سيما صراع المعتقدات الذي تغذِّيه الفكرة السِّياسيَّة؛ فالخصوم فيه يدركون أنَّ النَّتيجة تنتهي إلى غالب ومغلوب ضرورة، ويدركون أيضًا أنَّ زمن الصِّراع ممتدٌّ لا ينتهي بانتصار أحدهما وهزيمة الآخر، وهذه طبيعة حتميَّة في (الإيديولوجيات) المتصارعة تؤكدها سيروراتها التّأريخيَّة.

ولم يذكر ابن المقتول في شعره من مات من أهله أو عُذِّبَ كما جاء في سرد الخبر، قال(٢):

نفسي فدتْ شيبةً هناك وظُنـ   ـبوبًا به من قيودهمْ نَدَبُ
والسّادة الغرُّ من ذويه فما   روقبَ فيهم آلٌ ولا نَسَبُ
يا حِلَقَ اليدِّ ما تضمَّنْتِ من   حِلْمٍ وبِرٍّ يزينُه حَسَبُ
وأمَّهات من الفواطم أخْـ   ـلصَتْكِ بيضٌ عقايلٌ عَرَبُ

فالذِّكر العام للسّادة الغرِّ يجعل القطعة صالحة حتى للمقتولين في كل زمن من أزمان الصِّراع، فلا تخصيص يحدد من ذُكِر في الخبر، وقد تقبل هذه القطعة في مكان غير هذا المكان دون أن يؤثر ذلك في فحوى مضمونها؛ ذلك أنَّ التَّخالف ظاهر بين مضمون الخبر ومضمون الشِّعر، أو على الأقل لم يكن الشِّعرُ معبِّرًا تعبيرًا دقيقًا عن مضمون الخبر وأفكاره.

ومن جهة أخرى يلاحظ أنَّ قطعة الثَّأر لم تكن بالعمق الذي أظهرته مقاتل الطّالبيّين في الخبر، فهو يلوم فيها النَّفس ويُمنّيها لو أنَّها تستطيع القتال لتأخذ بالثَّأر، قال(٣):

كيف اعتذاري إلى الإلهِ ولمْ   يُشْهَر فيكِ المأثورةُ القُضُبُ

---

(١) المقاتل، ص٢٢٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٨-٢٢٩.
(٣) المقاتل، ص٢٢٩.

ولم أقدْ غارةً ململَمَةً فيها بناتُ الصَّريحِ تنْتحِبُ
والسّابقات الجياد والأسَل السـ ـمْر وفيها أسنَّةٌ ذرِبُ(١)
حتى توفِّي بني ثبيلةَ بالـ ـقسْطِ بكيل الصّاع الذي اختلبوا(٢)
بالقتل قتلاً وبالأسير الذي في القدِّ أسرى مصفودة سُلُبُ

وتظهر المفارقة في البيت الأخير، فقد أراد أنْ يثأر وأن يقتل، وهي مقابل للعقوبة التي لحقت بهم، لكنه يتناسى عند القتل أنَّ من يريد الثَّأر منهم هم من نسب النَّبيِّ الكريم وآله، فما أخذه على العبّاسيين من عدم مراعاة نسب الطالبيّين، يدعو إليه هو من جديد، وهذه طبيعة أخرى من طبائع الصِّراع الاعتقاديِّ الذي لا يقوم فيه التَّمييز بين القريب والبعيد، وإنَّما المعوَّل عليه هو المعتقد حسب.

وتنتهي القصيدة بأبيات التَّحسر على أحوال آل الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جهة علي ـ رضي الله عنه ـ وهي كالبكاء تظهر في معظم شعر الطّالبيّين، قال(٣):

أصبح آل الرَّسول أحمد في النـ ـاس كذي عرَّةٍ به جَرَبُ
بؤسًا لهم ما جنتْ أكفُّهُمُ وأيُّ حبْلٍ من أمَّةٍ قضبوا
وأيُّ عهْدٍ خانوا الإلهَ بِهِ شُدَّ بميثاقٍ عَقْدُهُ الكذبُ

وينبعث من رثاء إبراهيم بن عبد الله لأخيه محمد نفس ثوري يتلاءم وطبيعة الصِّراع الاعتقاديِّ، فلا بكاء بسبب الموت في سبيل العقيدة، ولا مناص للأتباع من القتال والنِّضال حتى تحقيق الغايات، قال(٤):

سأبكيكَ بالبيضِ الرِّقاقِ وبالقَنا فإنَّ بها ما يُدرِك الطّالبُ الوتْرا
وإنّا أناسٌ لا تفيضُ دموعُنا على هالكٍ منّا ولو قصَمَ الظَّهرا
ولستُ كمنْ يبكي أخاهَ بعبْرَةٍ يُعصِّرُها من جفْن مُقْلتِه عصْرا
ولكنَّني أشْفي فُؤادي بغارَةٍ أُلهِّبُ في قطْري كتائبَها جَمْرا

---

(١) الأسل: الرماح، وأصل الأسل نبات له أغصان دقاق كثيرة ولا ورق لها. ذرب: حادة.

(٢) ثبيلة: هكذا قرأها المحقق، ولا وجه لها، وفي الطبري (نتيلة) وهي الصواب؛ جاء في لسان العرب: نتلة ونتيلة: أم العباس وضرار ابني عبد المطلب. انظر، الطبري، محمد بن جرير(بدون سنة نشر)، تاريخ الرسل والملوك، ط١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر. وابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (٢٠٠٠م)، لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت. مادة (ن ت ل).

(٣) المقاتل، ص٢٢٩.

(٤) المقاتل، ص٣٠٩

وهذا النَّفس قد يختفي في معظم الأشعار التي استشهد بها الأصفهانيُّ مما غلب عليها البكاء، ولا سيَّما أشعار الشُّعراء من غير أهل المقتولين كما سيأتي بيانه.

واستشهد ذوو المقتولين بأشعار الجاهليّين التي رأوها واصفة لأحوال أهليهم، ومن ذلك ما رواه الأصفهانيُّ بسنده عن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، قال(١): "لقيني موسى بن عبد الله بالسَّيالة(٢)، فقال: انطلق أرك ما فعل بنا في سويقة(٣)، فذهبت معه، فوجدت نخلها قد عَرْقبتْ، فقال: نحن والله كما قال دريد بن الصِّمة:

تقولُ: ألا تبكي أخاك! وقدْ أرى   مكانَ البُكا لكنْ بُنيتُ على الصَّبْرِ
لمقتلِ عبد الله والهالك الذي   على الشَّرفِ الأقصى قتيلِ أبي بكرِ
وعبدِ يغوثَ أو نديمَيِّ خالدٍ   وعزَّ مُصابًا خيرُ قبْرٍ على قبْرِ
أبى القتلُ إلا آلَ صمَّة إنَّهُمْ   أبَوا غيرَه والقَدْرُ يجري على القَدْرِ
فإمَّا تَرينا لا تزالُ دماؤنا   لدى معْشَرٍ يسعى لها آخرَ الدَّهْرِ
فإنّا لِلحْمِ السَّيفِ غيرُ نَكيرةٍ   ونَلْحَمَهُ طورًا وليس بذي نُكْرِ
يُغار علينا واترينَ فيُشْتفى   بنا إنْ أُصِبْنا أو نُغيرُ على وتْرِ
بذاك قسمْنا الدَّهر شطرين بيننا   فما ينقضي إلا ونحنُ على شَطْرِ

وهذه الأبيات قالها دريد في رثاء إخوته، وهي أحسن شعر قيل في الصبر على النوائب كما يرى أبو عمرو بن العلاء(٤)، والخبر يوضح ما فُعل بالطّالبيّين في منازلهم، واكتفى فيه بالإشارة إلى تقطيع النَّخيل للدَّلالة على عِظَمِ الخطْبِ الذي ألمَّ بهم، وهذا الإيجاز في الخبر يتبعه التَّفصيل بلغة الشِّعر المُكثَّفة.

إنَّ السَّارد بتضمينه لأبيات دريد، بعد أن رآها مُعبِّرة عن حاله وصحبه، يجري موازنة مطابقة للمناسبتين، فالأسماء يمكن أن تستبدل بها أسماء الطّالبيّين فتتغير المناسبة وتتحول من مقاتل آل صمَّة إلى مقاتل الطّالبيّين، وأيُّ استشهاد من هذا النوع يجعل القارئ يتلمَّس مواضع المشابهة والاختلاف بينهما.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٩٨.

(٢) السَّيالَة: موضع بقرب المدينة، وهي الطريق منها إلى مكة. انظر: البكري، معجم ما استعجم، ج٣/ص٧٦٩.

(٣) سويقة: موضع على مقربة من المدينة، وكانت بها منازل الحسن بن الحسن بن علي. انظر: البكري، معجم ما استعجم، ج٣/ص٧٦٧.

(٤) ابن الصمة، دريد، (١٩٨٥م) ديوانه، ط١، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، مصر. ص ٩٥ ـ ٩٦.

وتتمثل المشابهة بين المناسبتين من جهات عدة، منها: هلاك الأهل والأقارب بعد النِّزاع، فقد مات لدريد إخوته الذين جاء ذكرهم في الأبيات (عبدالله، وعبد يغوث، وخالد)، ومات للسّارد أخوه محمد بن عبدالله، ولقي أهله العنت والبأس الشديد من العبّاسيّين.

وكان دريد يعتدُّ بقومه اعتدادًا عظيمًا فأنزلهم منزلةً سامية حتى مع غلبتهم وهزيمتهم، فالقتل الذي طاف بهم أتى على قدرهم ومكانتهم؛ لأنَّ العظيم لا تصيبه إلا المصائب العظام، وهذا يقابله في المعنى التوعد للقتلة بأخذ الثأر والنيل منهم، وهي الصورة نفسها التي أراد السارد إيصالها عن الطّالبيّين.

أما الاختلاف فيتمثل بتباعد المعتقد بين الشّاعر والسّارد، فالأول جاهلي يتكلم بلسان القبيلة والقوم، والآخر طالبيٌّ يتكلم بلسان المعتقد وأهله، فنكون أمام سارد يؤمن إيمانًا تامًّا بأن معتقده هو الحق وغيره هو الباطل؛ وبسبب ذلك نجده لا يرتضي ـ بدعوى الطّابع الإنسانيّ ـ أن يستشهد بشعر نظمه أحد خصومه أو أحد شعرائهم، ولذلك كان الاستشهاد يغترب في الزمن ليصل إلى الشِّعر الجاهلي حيث لا خصوم ولا أعداء، فيحافظ بذلك على قوة المعتقد بعدم مناقضته لمبادئه ودعواه.

لكن هذا الاستشهاد لا يخلو من تناقض مع المعتقد من جهة العموم، فدريد طال عمره وأدرك الإسلام ولم يسلم، وخرج يوم حنين وتمنّى أن يكون شابًا قادرًا على حمل السلاح ليقاتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان يرتجز⁽١⁾:

يا ليتني فيها جَذَعْ   أخبُّ فيها وأضعْ
أقودُ وطفاء الزَّمَعْ   كأنَّها شاةُ صَدَعْ

فإشهار المعاداة ظاهر في سيرة دريد تجاه النَّبي الكريم، وفكرة المعتقد (الدوغمائية) تفرض عدم قبول المعادي، لكنها هنا تتناسى الخصم القديم في حضرة الخصم الجديد. وقد تناسته مرة أخرى في خبر آخر تكررت فيه الأبيات نفسها⁽٢⁾.

وروى الأصفهانيُّ بسنده⁽٣⁾: "لمَّا كان يوم الفطر شهدنا إبراهيم، وكنا قريبًا من المنبر، وعبد الواحد بن زياد معنا، فسمعت إبراهيم يتمثل بهذه الأبيات:

أبا المنازلِ يا خيرَ الفوارسِ مَنْ   يُفْجَعْ بمثْلِكَ في الدُّنيا فقدْ فُجِعا
اللـهُ يعلَمُ أنِّي لو خشيتُهم   وأوجس القلبُ من خوفٍ لهم فَزَعا

---

(١) الديوان المجموع، ص١٢٨. جذع: صغير السن. الخبب: ضرب من السير. أضع: أعدو. وطفاء: كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشفار. الزمع: الشعرة المدلاة في مؤخر رجل الشاة والظبي والأرنب. صدع: الفتي الشاب القوي من الأوعال والظباء والإبل.

(٢) انظر، المقاتل، ص٣٧٤- ٣٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٤٢. الخبر والشعر مكرران ص٣٧٤.

لم يقتلوهُ ولـمْ أسْلِمْ أخي لَهُم حتى نموتَ جميـعًا أو نعيشَ معًا

ثم بكى، فقال: اللهم إنَّك تعلم أنَّ محمدًا إنما خرج غضبًا لك، ونفيًا لهذه المسودة وإيثارًا لحقك، فارحمه واغفر له، واجعل الآخرة خير مردٍّ له، ومنقلب من الدُّنيا. ثم جَرَضَ بريقه وترادَّ الكلام في فيهِ وتلجلج ساعة، ثم انفجر باكيًا منتحبًا، وبكى النَّاس".

ويتَّضح الرّوح العقديُّ في سرْد الخبر، فالمقتول لم يكن صراعه من أجل دنيا يصيبها، وإنما من أجل إرضاء الله عز وجل، فهو يسبغ على الصِّراع طابعًا شرعيًّا يستحق المقتول كفاءه الفوز برحمة الله وغفرانه، ويستحق الخصم (القاتل) النيل منه، ولعنه، وعدم إدخاله في رحمة الله. وهذه المقابلة تفرضها طبيعة الصِّراع؛ فليس من المقبول أن يكون الاثنان يدافعان عن عقيدتين يرضى عنهما الله وهما في الوقت نفسه مختلفان يُشْهران السُّيوف ويُضْمران العداوة والبغضاء.

وجاءت الأبيات مؤكدة حقيقة الصِّراع وإصرار المتنازعين عليه، فالطّالبيُّ لم يخش العبّاسيَّ لأنه يقاتل في سبيل عقيدة آمن بها، ولو لم يكن كذلك لنجا ونجا أخوه من القتل، فالعقيدة غذَّت المقصد السّياسيَّ وكانت نتيجة ذلك كله الموت، ومن ثمَّ الانتحاب على من رحلوا بسببه.

٣. الشِّعر لأحد الشُّعراء

اشتملتْ أخبار مقاتل الطّالبيّين زمن العبّاسيين الأُوَل على أشعار كبار الشُّعراء ممن كانوا على آصرَةٍ قويَّة مع المذهب وأربابه، كما اشتملتْ على شعراء مغمورين معروفين لدى الطّالبيّين ولا شهرة لهم موجودة لدى مؤرخي الأدب، كما اشتملتْ على شعر شعراء معارضين للمذهب كمروان بن أبي حفصة، وسابقين على عصر العبّاسيّين كعمر بن أبي ربيعة(١).

وتباينت قيمة هذه الاستشهادات من واحد لآخر، فبعضها جيء به لمديح شخصية الطّالبيِّ على نحو أبيات إبراهيم بن هرمة في العبّاس بن الحسن، قال الأصفهاني(٢): "وكان العبّاس أحد فتيان بني هاشم، وله يقول إبراهيم بن علي بن هرْمة:

لمَّا تعرَّضْتُ للحاجاتِ واعْتلجَتْ عندي وعادَ ضميرُ القلبِ وسْواسا
سعيتُ أبغي لحاجاتٍ ومصدرها برًّا كريمًا لثوبِ المـجْـدِ لبّاسا
هداني الله للحُسْنى ووفَّقنـي فاعتمْتُ خير شباب النّاس عبّاسا
قِدْح النَّبي وقِدْحٌ من أبـي حَسَنٍ ومنْ حُسينٍ جرى لم يخْر حنّاسا(٣)

---

(١) انظر، المقاتل، ٤٧٠، ٤٨٧. والاستشهاد لم يكن ذا بال.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٧، وابن هرمة، إبراهيم (١٩٦٩م)، ديوانه، ط١، تحقيق محمد جبار المعيبد، مطبعة الآداب، النجف. ص١٣٢.

(٣) حناس: الشجاعة.

ويبدو أنَّ الأصفهاني قد جاء بالأبيات لوصف الشَّخصيَّة حسب، وهو ما يجعل الشِّعر مركز الخبر؛ فالعبارة السَّرديَّة قصيرة غير معبِّرة تعبير الشِّعر الذي جعل الطالبي برًّا كريمًا شجاعًا، ذا نسب كريم يرجع إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم، ويتصل بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا كله لم يقلْه الخبر.

غير أنَّ وظيفة الشِّعر هنا تتجاوز الوصف الخالص إلى تقديم الشَّخصيَّة بصورة مميزة، فمجيء ذكرها في الشِّعر دليل على أنَّها شخصيَّة عظيمة لاقت اهتمام الشُّعراء وعنايتهم حتى جعلوها مضمونًا من مضامين شعرهم.

وجيء ببعض الأشعار لتصحيح خطأ شاع فيها، على نحو ما ورد عند سديف بن ميمون، روى الأصفهاني:" إن إبراهيم بن عبد الله أبو الحسن، وكلُّ إبراهيم في آل بيت أبي طالب كان يُكْنى أبا الحسن، فأمَّا قول سُديف لإبراهيم بن عبد الله:

إيهًا أبا إسحاق هُنِّيتَها   في نَعَمٍ تَتْرى وعيشٍ طويلْ
أذكر هداكَ اللهُ وترَ الأولى   سيرَ بهمْ في مُصْمَتاتِ الكُبولْ

فإنَّما قال ذلك على مجاز الكلام، وما يعرف شكلاً للأسماء من الكنى، ولضرورته في وزن الشِّعر إلى ذلك"(١).

وجاء هذا الخبر في بداية الحديث عن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، ويظهرُ فيه النُّزوعُ التَّحقيقيُّ لدى الأصفهانيِّ في تصحيحه لرأي الشّاعر في كنية الطّالبيِّ، وهو ما يدل على تنازع المعرفة التّأريخيَّة والشِّعريَّة، وحِرْص المؤلف على تحقيق الكنية نابع من معرفته بأثر الشِّعر الكبير فيما لو ترك الاسم همْلاً دون تحقيق، وهو بهذا يُحقِّق أخبار الطّالبيّين حتى لا يقع الوهم في اسم أحدهم أو في سيرته تمشِّيًا مع غايته من الكتاب.

وينقل الأصفهانيُّ بيتين لابن هرْمة في معرض حديثه عن ما ذكر في تسمية محمد بن عبد الله بن الحسن بالمهديِّ، قال(٢): "ولمحمد يقول إبراهيم بن علي بن هرمة:

لا والذي أنتَ منهُ نعمةٌ سلَفتْ   نرجو عواقبها في آخرِ الزَّمنِ
ما غيَّرت وجهَهُ أمٌّ مُهجَّنَةٌ   إذِ القَتامُ يُغشِّي أوجهَ الهُجُنِ

وهذان البيتان من قصيدة اعتذاريَّة قالها إبراهيم بن هرْمة، بعد أن غضب عليه عبد الله بن حسن وقطع عنه أرزاقه بسبب تعريضه به في قصيدة مدح فيها الحسن بن زيد، وهذا يجعلنا أمام مناسبتين: الأولى المناسبة الحقيقيَّة التي صدر عنها الشِّعر، والثّانية المناسبة التأريخيّة التي استخدم فيها الشعر، والمناسبة الثانية تلغي الأولى وتمحو مضمونها الاعتذاري وتثبت المضمون

---

(١) المقاتل، ص٣١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٣-٢٤٤. والديوان المجموع، ص٢٣٤- ٢٣٥.

المدحي الذي ينزل فيه الشاعر ممدوحه منزلة المهدي الذي يظهر في آخر الزمان(نرجو عواقبها في آخر الزمن).

وقراءة الشِّعر في ضوء المناسبة الأولى تُفرغُ المضمون من جدَّته، فالشّاعر استغلَّ ما قيل في محمد بن عبد الله من كونه المهديَّ ليحظى بالعفو من أبيه وأهله، إذ قال بعد البيت الأول مباشرة:

لقدْ أتيتُ بأمرٍ ما شهدتُ له   ولا تعمَّده قصْدي ولا سَنَنِ

إلا مقالـة أقوامٍ ذوي إحَنٍ   وما مقالُ ذوي الشَّحناءِ والإحَنِ

فهذه النَّبرة الاعتذاريَّة تغلب على النَّبرة الوصفيَّة بالمهدي، ولذلك يأتي استشهاد الأصفهاني بالبيتين من باب الذكر حسب، لأنَّ الإحالة على القصيدة كاملة كما يفرضها البيتان لا توجب هذا الوصف ولا تجعله مدار القصيدة، فالقصيدة اعتذاريَّة حشد فيها الشّاعر ما يستطيعه من معانٍ لكسب رضا ممدوحه، ومنها فكرة المهدويَّة التي راجت حول محمد بن عبد الله وتناقلها النّاس في أيامه(١).

ومن جهة أخرى يأتي شعر ابن هرْمة ملخِّصًا لطبع سُلطانيٍّ عند أبي جعفر المنصور، وهو عدم المشاورة في أمر رآه واستحسنه، روى الأصفهانيُّ(٢): "لما ظهر محمد بن عبد الله دعا أبو جعفر عيسى بن موسى، فقال له: قد ظهر محمد فسِرْ إليه. قال يا أمير المؤمنين، هؤلاء عمومتك حولك، فادعهم وشاورهم. قال: فأين قول ابن هرمة:

تزور امرءًا لا يمحضُ القومَ سرَّهُ   ولا ينتجـي الأدْنَيـن فيما يُحاولُ

إذا مـا أتى شيئًا مَضى كالذي أتى   ومـا قال إنِّي فاعلٌ فهـو فاعِلُ

الشِّعر هنا لا يقتصر أثره في الخبر على كونه مختصرًا لسرْدٍ نثريٍّ كان يفترض بالمنصور أن يقوم به في ردِّه على وزيره حسب، بل نراه يؤثِّر في المنصور نفسه لا من جهة تحويله مستبدًّا كما ذهب بعض الباحثين(٣)، وإنَّما من جهة اعترافه بالشِّعر وقوَّته، فهو الذي لم يكن يثيبُ على الشِّعر ولا يتذوقه يستشهد ببيتين قيلا في مدحه بعد أن رأى أنَّهما يصفان طبعه السُّلطويّ.

وسواء وقع هذا التَّضمين الشِّعريُّ حقيقة على لسان المنصور أو أنَّ المؤرخين وجدوه معبِّرًا عن شخصيَّته فنقلوه عنه، فإنَّه أكسب الشِّعر قوَّة وقيمة بعد أنْ أصبحتْ فكرته هي الموضوع الرَّئيس الذي يدور حوله الخبر.

---

(١) أنكر عبد الله بن الحسن أن يكون ولده محمد هو المهدي، ويبدو أنَّ هذا الإنكار لم يكن له صدى عند كثير من الشعراء. انظر، المقاتل، ص٢٤٥ وما بعدها.

(٢) المقاتل، ص٢٦٦-٢٦٧. والديوان المجموع، ص١٦٧.

(٣) انظر،الغذامي،عبد الله، (٢٠٠٥م) النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت. ص١٥٦.

ومن جهة ثانية منح الشِّعر الخبر نمطًا مختصرًا أنآه عن التَّطويل النَّثريِّ في عرض التَّفاصيل والجزئيّات وهو ما تتضمَّنه عادة اللغة الشِّعريَّة بكثافتها وعمقها.

ومن جهة ثالثة يستبطن الشِّعر دلالة هجائيَّة للسُّلطة بعد أن اقتطع البيتين من موضعهما المدحيِّ في سياق القصيدة، وألصقهما بالخبر الذي يُشير إلى طلب المنصور من وزيره الظفر بمحمد بن عبد الله، والوزير يدعوه إلى المشاورة، لكنَّه يرفض ذلك وينفِّذُ رأيه في إيحاء ظاهر إلى تسلطه واستبداده ومخالفته لأهم خلقٍ رفيعٍ من أخلاق السُّلطة وهو الشّورى(١).

وتخلل الرِّثاء أشعار الأخبار وجاء ترتيبه كالمعتاد في آخر الخبر؛ فرثى أشجعُ السُّلمي ودعبل الخزاعي علي بن موسى الرضا، أمَّا الأول فرثاه في قصيدة سَرعان ما جعلها في هارون الرشيد مخافة أن يؤخذ بها، وهي في أبياتها تتفجع وتتحسر على موت علي الرضا، فلا تشيع فيها الروح السياسية الناقدة التي كانت توجِّه تهم موته بطريق مباشرة وغير مباشرة إلى الخليفة المأمون؛ غير أنَّ شدَّة التَّفجع قد تحسب ضمن الصِّراع السّياسيِّ فهي تعبير واضح عن جزَعٍ عظيمٍ، وكلما اشتدَّ الجزع اتَّضحت أهميَّة المرثي وقيمته لدى النّاس وهو ما يثير حفيظة المعادي أو الخصم ضرورة، انظر قوله(٢):

يا صاحبَ العيسِ يُحدَى في أزمَّتها   اسمعْ وأسمِعْ غدًا يا صاحبَ العيسِ
اقْرا السَّلام على قبْرٍ بطوسٍ ولا   تقرا السَّلام ولا النُّعمى على طوسِ
فقد أصـابَ قلـوبَ المسلمين بها   روعٌ وأفـرخَ فيـها روعُ إبليسِ
وأخلستْ واحد الـدُّنيـا وسيِّدَها   فـأيُّ مختَـلِـسٍ مـنَّا ومخلوسِ
ولو بـدا المـوتُ حتى يستديرَ بهِ   لاقـى وجـوه رجـالٍ دونـه شوسِ(٣)

وصورة الصِّراع تتبدى من ذكر طوس موضع القبرين: قبر هارون الرشيد، وعلي بن موسى الرِّضا، وتخصيص السَّلام على القبر دون طوس مقصود به التَّفضيلُ◌ الشَّخصيُّ شخص الرِّضا على الرَّشيد. كما أنَّ ألفاظ (قلوب المسلمين، واحد الدنيا، سيدها، رجال) تحتمل دلالاتٍ جمعيَّة تنتمي إلى حقل الصِّراع الاعتقاديِّ، فكلُّ طائفةٍ ترى أنَّها تُمثِّل المسلمين جميعًا، وأنَّ قائدها هو واحد الدنيا وفردها، وسيِّدها وحاميها، وأنَّ دونه رجالاً يدفعون عنه ويحامون عليه، ويزداد ذلك وضوحًا بمباشرته الشِّعريَّة، قال(٤):

لا يـومَ أولى بتخريقِ الجيوبِ ولا   لطْمِ الخدودِ ولا جَدْعِ المعاطيسِ

---

(١) انظر تحليلاً دقيقًا لمسألة الشورى عند أبي جعفر المنصور في كتاب، الخالديين، محمد وسعيد بن هاشم (١٩٣٤م) المختار من شعر بشار، ط١، اعتناء محمد بدر الدين العلوي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. ص٢٥٩ وما بعدها.

(٢) المقاتل، ص٥٦٨.

(٣) شوس: من الشوَس وهو النظر بمؤخر العين تكبرًا وتغيظًا.

(٤) المقاتل، ص٥٦٩.

منْ يومِ طوسِ الذي نادتْ بروعتِهِ   لنا النُّعاةُ وأفواهُ القراطيسِ
حقًّا بأنَّ الرِّضا أودى الزَّمانُ به   ما يطلبُ الموتَ إلا كلُّ منفوسِ

وطوس لها يومان: يوم الرَّشيد السابق، ويوم الرِّضا اللاحق، وإثبات الحزن على يوم الرِّضا يستبطن نسقًا تفضيليًّا على يوم الرَّشيد، ومن ثمَّ نسقًا اعتقاديًّا بين الطائفتين. وعلى هذا استطاعت الأبيات أن تقول ما لم يقله الخبر الذي نحا منحى موضوعيًّا بحكم غايته التّأريخيَّة، لكنَّ الشِّعر انحرفَ عن هذه الغاية لينال من الاعتقاد الآخر، بتقليل شأنه أو تجليل عمله السَّيء في حق الطّالبيّين، أو شتمه المباشر كما يظهر في شعر دعبل الخزاعي، قال(١):

هو النَّفسُ إلا أنَّ آلَ مُحمَّدٍ   لهمْ دون نفْسي في الفؤادِ كمينُ
أضرَّ بهِمْ إرثُ النَّبيِّ فأصبحوا   يُساهَمُ فيهم ميتةٌ ومنونُ
دعتْهُمْ ذئابٌ من أميَّة وانتحتْ   عليهم دِراكًا أزْمَةٌ وسنونُ
وعاثتْ بنو العبَّاس في الدِّين عيْثةً   تحكَّمَ فيها ظالمٌ وظنينُ
وسمّوا رشيدًا ليس فيهم لرشْدِه   وها ذاك مأمونٌ وذاك أمينُ
فما قُبلتْ بالرُّشد منهم رعايةٌ   ولا لوليٍّ بالأمانةِ دينُ
رشيدُهُمُ غاوٍ وطفْلاه بَعْدهُ   لهذا رزايا دون ذاك مجونُ
أيا عجبًا منهم يُسمّونَك الرِّضا   ويلقاكَ منهم كُلحَةٌ وغضونُ
أتعجبُ للأجلافِ أنْ يتخيفوا   معالمَ دينِ الله وهو مبينُ

والموازنة بين شعر المقتولين وشعر ذويهم وشعر الشُّعراء المشهورين تظهر أنَّ الأخيرينَ كانوا أكثر مباشرة في هجومهم على خصومهم العبّاسيّين، وهذا يُفسِّره حرص الشّاعر على تأكيد انتمائه المذهبيِّ وولائه الاعتقاديِّ، وهو ما لا يحتاج إليه المقتولون الذين ضحوا في سبيل معتقدهم، ولا يحتاجه ذووهم الذين ساروا المسير نفسه، ولحقوا بهم من بعدهم.

وعلى هذا يُنزِّه الأصفهانيُّ المقتولين من الطّالبيّين عن السِّباب والشّتم ويظهرهم بمظهر الصّابرين المتجلّدين على ما أصابهم من قرْح على يد أولاد عمومتهم، ويترك التَّعبير عن ذلك كلِّه للشُّعراء الذين لن يتورعوا، بحكم صنعتهم الشِّعريَّة، عن القيام بما ترفَّع عنه متبوعوهم.

وتلقانا في المقاتل أشعارٌ أخرُ ارتبطت بالأخبار ونسجها شعراءُ شيعةٍ مغمورون غير مشهورين، منهم: غالب بن عثمان الهمداني، وأبو الحجاج الجُهَني، وعبد الله بن مصعب، ولا تخرجُ هذه الأشعار في تشكُّلها البنيويِّ مع الخبر عن سابقتها؛ فهي تأتي في آخر الأخبار لتكون

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٧١. وانظر، الديوان المجموع، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ . دراكًا: متتابعًا. يتخيفوا: يخالفوا.

منتهى ينتهي به الخبر من جهة، ولتكون ذاكرة اعتقاديَّة لكلِّ فكرة من أفكاره من جهة أخرى؛ بناء على أنَّ الشعر متنقلٌ بين الألسنة مذاعٌ بين النَّاس.

وموضوع هذه الأشعار هو الرِّثاء الذي يعمد إلى بيان محاسن المقتول ومكارمه، ويشوبه التَّفجع والحسرة والبكاء على فراقه، ولا ينسى وصف بطولته وشجاعته في التَّصدي لخصمه ومقارعته، وتبيين مساوئ الخصم وتعديه في القتل وتجاوزه، وشحذ الهمَّة لأخذ الثأر منه والنكاية به.

وهذه الموضوعات تضمنتها أشعار المشهورين، غير أنَّ ما تمتاز به أشعار المغمورين المضمَّنة قلة السِّباب والشَّتْم المباشر للخصم كتلك التي تولاها دعبل الخزاعي، فقد أخلصها أصحابها لبيان الحزن والأسى (البكائيات)، وإنْ لم تخلُ أحيانًا من بعض التَّعريض، وهي بذلك تمثل ضربًا من الشعر الاعتقاديِّ الخالي من مواضع التَّحسس النَّقديِّ، التي ينشئ وجودها علاقة خصام شديد بين القارئ والنَّص فيما لو كان القارئ من غير أتباع المعتقد.

ولعلَّ أهمَّ فكرة يمكن تناولها في هذه البكائيات ـ إضافة إلى فكرة التَّفجع والحسرة ـ فكرة الثأر؛ والسَّبب في ذلك أنَّ وصف مكارم الطالبي ومحاسنه ووصف قتاله ونضاله قد أتت عليها أخبار الكتاب عرْضًا وتفصيلاً، لكنَّها لم تعرض للحزن والأسى والثأر، وهي مشاعر عاطفيَّة لا يمكن أن يعبِّر عنها النَّثر السَّرديُّ الجاف كما يعبِّر عنها الدَّفق الشِّعريُّ الحيُّ.

أما الحزن والأسى على المقتولين فجاء التعبير عنه بمشاهد البكاء على المقتولين، ومنه قول غالب بن عثمان الهمداني في رثاء محمد بن عبد الله(١):

يا دارُ هجتِ لـيَ البكاءَ فأعْولي   حُيِّيتِ منزلـةً دُثِرتِ ودارا
بالجِزْعِ من كَنَفَي سُويقةَ أصبحتْ   كالبُـرْدِ بعْدَ بنـي النَّبيِّ قِفارا

وقول عبد الله بن مصعب في رثائه(٢):

سالتْ دموعُكَ ضلَّةً قد هجتَ لي   بُـرحـاء وجْـدٍ يبعثُ الأحزانا
هلا على المهديِّ وابْنَي مُصْعَبٍ   أذْريـتَ دمْعَكَ ساكبًـا تهْتانا
ولفقْدِ إبراهيـمَ حين تصدَّعتْ   عنـه الجمـوعُ فواجَه الأقْرانا

إن البكاء يطَّرد في كل مراثي الطّالبيّين ولا غرابة فيه ألبتة، غير أنَّ قيمته في الخبر السياسي تنجلي من قدرة الأصفهاني على توظيف الشعر فيه توظيفًا دقيقًا؛ إذ يجعله يعبر عن الجانب الآخر في التَّأليفِ الاعتقاديِّ، الذي لا يكون مكتملا إلا مع توكيد مفاهيم الولاء والبراء، فإذا كان سردُ الأخبار يتطلب الموضوعيَّة والحياد، فإنَّ الشِّعر يمنح المؤلف سعة للتَّعبير عن

---

(١) المقاتل، ص٣٠٤.

(٢) المقاتل، ص٣٠٦. برحاء وجد: شدة الحزن. تهتانا: قطر الدمع.

تأثره بمقاتل متبوعيه، فيجعل من النَّصِّ الشِّعريِّ امتدادًا عاطفيًّا ينقل إحساسات المؤلف وآراءه المتخفيَّة، وهذا ما ظهر بجلاء في اختياراته لأشعار دعبل التي كان يشتم بها بني العبّاس، وما ظهر في أشعار هؤلاء المغمورين في بكائهم على متبوعيهم.

ويسير الحرص على الأخذ بالثأر مسيرة المراثي ويتوخى غايتها في الإفراغ الشُّعوريِّ، قال غالب الهمداني(١):

لا تسْقِنـي بيديكَ إنْ لم أبْتعثْ   لبنـي نُتَيلـةَ جحْفلاً جرّارا
لجِبًا يضيقُ به الفضاءُ عرمرمًـا   يغشـى الدَّكادكَ قسطلاً موّارا
فيه بنات بني الصَّريحِ ولاحـقٌ   قُبًّـا تُغـادرُ في الخليفِ مهارا
يخرجْنَ من خللِ الغُبـار عوابِسًا   يورينَ في حصَبِ الأماعزِ نارا
فننالُ في سَلَفَي نُتَيلـةَ ثـارنا   فيمـا يُنـالُ ونُـدركُ الأوتـارا

وقال أحد العلويين في رثاء يحيى بن عبد الله بن الحسن(٢):

كـان لنـا غيـثًا به نـرتـوي   وكـان كـالنَّجم به نهتدي
فإنْ رمـانـا الـدَّهرُ عن قوسِهِ   وخـانـنـا في منتهى السُّؤددِ
فعن قـريـبٍ نبتـغي ثارَهُ   بالحَسَنـيِّ الثّـائر المُهتدي
إنَّ ابن عبد الله يحيـى ثـوى   والمجدُ والسُّؤدد في مَلْحَدِ

لقد عبَّرت هذه الأشعار في مباكيها وثاراتها عن صورة الطّالبيِّ المظلوم المقتول على غير ذنب سوى محبة آل البيت الكريم، والدَّعوة إلى استرجاع حقوقهم التي سلبها إياهم خصومهم من العبّاسيّين بعد أن حازوا السُّلطة، وهذا الاسترجاع لا يكون إلا مع التَّضحية والسَّير على منوال الأسلاف ممن ضحّوا في سبيل المعتقد، فالثأر نداء لاستمرار الدَّعوة والعمل من أجلها؛ مما يجعل الأشعار نهاية مفتوحة لمسيرة طويلة تنتظرُ أن يُسيِّرها الأتباع، وهو ما يثبت استشراف الشِّعر للمستقبل، وحصر تيار التَّأريخ في الماضي.

خاتمة

أظهرتِ القراءة أنَّ تضمين الشِّعر في أخبار مقاتل الطّالبيّين لم يكن شكليًّا يُقصدُ به الاستئناس المجرد حسب، بل كانت له وظيفةٌ تتوافق وغاية الكتاب الرَّئيسة التي قصد الأصفهانيُّ

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٠٤. لجب: صوت العسكر. الدكادك: بطون من الأرض مستوية. القبُّ: جمع أقب وهو الضامر، وهو وصف للخيل يعني دقة الخصر وضمور البطن. الخليف: الطريق بين جبلين.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٨٦

إلى تحقيقها من عرضه أحوال شخصيات الطّالبيّين وتصوير نضالهم وكفاحهم في صراعهم مع الجماعات الأخر، ويمكن إجمال أبرز مظاهر الأثر الشّعريِّ في الخبر السّياسيِّ بما يأتي:

- أبعد الشّعرُ الخبرَ السّياسيَّ عن الجفاف النّظريِّ الذي يغلب عليه دائمًا، فمنحه رقَّةً وليونةً ترشحان فكرًا يخاطبُ القلوبَ ويُحاولُ تملُّكها بذلك التَّصوير الحزين والبكاء المستمر على شخوص المعتقد، وهذا مقصد أثير لدى المؤلف ما كان للسَّرد الخبريِّ أن يتأدى إليه.

- كان الشّعر تنفيسًا للطّالبيّين، عبَّروا من خلاله عن الجانب الآخر من شخصيّاتهم، بما يُخفيه هذا الجانب من ضعف ولينٍ وعدم قدرة على الصَّبر والمُجالدة مع طول أمدِ الصِّراع، وهو ما ظهر في أشعار المقتولين أنفسهم. وبما يظهره هذا الجانب من حزن ورثاء، وعزم وإصرار على مواصلة الصِّراع وأخذِ الثَّأر من الخصم كما تبينه أشعار أهل المقتولين، وهذا كلُّه لم يكشف عنه السَّردُ الخبريُّ.

- كشف الشّعر درجات الولاء والبراء لدى الشَّخصيات، واتَّضح ذلك من خلال ما سُمِّي بالتَّضمين الاعتقاديّ، سواء أكان بتقليد المتبوع من أهل المعتقد ومحاكاته في تضميناته واقتباساته، أم كان بتضمين نصوص من الخصوم المُعادين، على نحو ما جاء في تضمين نصِّ حيي بن أخطب اليهودي، ونصِّ دريد بن الصِّمة، وكلا الرَّجلين مُعادٍ للرَّسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

وإن كان تأويل هذا التَّضمين قد ضاق حتى لم نجد سوى الإحالة على التَّشابه بين المناسبتين، وتفضيل الحاجة إلى المعنى في المختار الشِّعريِّ على الولاء الاعتقاديِّ، إلا أنَّه يُبقي الباب مفتوحًا أمام تأويلات اعتقاديَّة قد يراها آخرون، ويتمثّل قريبها في انفتاح أهل المعتقد على الآخر وعدم انغلاقهم على أنفسهم، غير أنَّ هذا القريب لا يمكن الجزم به إلا بعد دراسة مستوفاة لصورة الآخر (المعادي) كما يراها أهل المعتقد؛ ويدفع نحو هذا الاحتراز إدراكُ أنَّ الانفتاح لم يكن على الخصم المباشر(العبَّاسيِّ).

- نزَّه الشِّعرُ شخصيات الكتاب عن السِّباب والشَّتْم، فلم ينقل لهم شعرًا يكيل شتْمًا على خصومهم، لكنَّه لم يتورع عن ذلك مُطلقًا بعد أن أحال هذه المهمة على الشُّعراء الذين أدَّوها على الوجه المراد، كما تجلى في نصوصهم عامَّة ونصوص دعبل الخزاعي خاصَّة؛ وظاهر ما في هذا التَّضمين من إبانة عن الجانب العاطفيِّ لدى المؤلف وما يشعرُ به من قهْر اعتقاديٍّ لم يتخفف عنه إلا بهذا الإفراغِ الشِّعريِّ.

وبالجملة، إنَّ تلازم الشِّعر مع أي مجالٍ معرفيٍّ إنسانيٍّ سيؤثِّرُ ضرورةً فيه، وسيقدِّم دلالاتٍ جديدةً تُحتِّم على النُّقاد استنباطها والكشفَ عنها؛ وهو ما يجعلُ وظيفة الشِّعر غير الفنِّيَّة أكثر حضورًا وقيمة بين المعارف.

المصادر والمراجع

- أرسطو. (بدون سنة نشر) فن الشعر. ط١. ترجمة عبد الرحمن بدوي. دار الثقافة. بيروت.
- الأصفهاني، علي بن الحسين. (بدون سنة نشر). الأغاني. ط٢. دار الفكر. بيروت.
- الأصفهاني، علي بن الحسين. (بدون سنة نشر). مقاتل الطّالبيين. ط١. تحقيق السَّيِّد أحمد صقر. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة.
- الأفغاني، سعيد. (١٩٥٧م). عائشة والسياسة. ط٢. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.
- إيجلتون، تيري. (١٩٩٧م). مقدمة في نظرية الأدب. ط٢. ترجمة أحمد حسان. دار نوارة. القاهرة.
- إيليوت، ت. س. (١٩٩١م). في الشعر والشعراء. ط١. ترجمة محمد جديد. دار كنعان. دمشق.
- البكري، عبدالله بن عبد العزيز. (١٩٩٦م). معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. ط٣. تحقيق مصطفى السقا. مكتبة الخانجي. القاهرة.
- البهبيتي، محمد نجيب. (١٩٨٥م). المدخل إلى دراسة التأريخ والأدب العربيين. ط١. دار الثقافة. الدار البيضاء.
- التوحيدي، أبو حيان. (بدون سنة نشر). الإمتاع والمؤانسة. ط١. صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت ـ لبنان.
- الجاحظ، عمرو بن بحر. (بدون سنة نشر). الحيوان. ط١. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- الجمحي، محمد بن سلام. (١٩٧٤م). طبقات فحول الشعراء. ط١. قرأه وشرحه محمود محمد شاكر. دار المدني. جدة.
- جينيت، جيرار. (بدون سنة نشر). مدخل إلى جامع النَّص. ط١. ترجمة عبد الرحمن أيوب. دار الشؤون الثقافية. بغداد.
- ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. (١٤١٢هـ). الإصابة في تمييز الصحابة. ط١. تحقيق محمد علي البجاوي. دار الجيل. بيروت.
- الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني. (١٩٩٧م). زهر الآداب وثمر الألباب. ط١. تحقيق يوسف علي طويل. دار الكتب العلمية. بيروت.

- الخالديان، محمد وسعيد بن هاشم. (١٩٣٤م). المختار من شعر بشار. ط١. اعتناء محمد بدر الدين العلوي. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.
- الدوري، عبد العزيز. (٢٠٠٠م). نشأة علم التأريخ عند العرب. ط١. مركز زايد للتراث والتاريخ. الإمارات.
- سعيد، إدوارد. (٢٠٠٠م). العالم. النَّص. النّاقد. ط١. ترجمة عبد الكريم محفوظ. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق..
- الصمة، دريد. (١٩٨٥م). ديوانه. ط١. تحقيق عمر عبد الرسول. دار المعارف. مصر.
- الطبري، محمد بن جرير. (بدون سنة نشر). تاريخ الرسل والملوك. ط١. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. مصر.
- الغذامي، عبد الله. (٢٠٠٥م). النقد الثقافي. قراءة في الأنساق الثقافية العربية. ط٣. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. بيروت.
- فراي، نورثرب. (١٩٩١م). تشريح النَّقد. محاولات أربع. ط١. ترجمة محمد عصفور. منشورات الجامعة الأردنية. عمان.
- القيسي، نوري حمودي. (١٩٨٠م). الشعر والتأريخ. ط١. دار الحرية. بغداد.
- كرومبي، لاسل آبر. (١٩٨٦م). قواعد النقد الأدبي. ط٢. ترجمة محمد عوض محمد. دار الشؤون الثقافية. بغداد.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. (٢٠٠٠م). لسان العرب. ط١. دار صادر. بيروت.
- ناصف، مصطفى. (١٩٩٧م). محاورات مع النَّثر العربي. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ع٢١٨.
- ابن هرمة، إبراهيم. (١٩٦٩م). ديوانه. ط١. تحقيق محمد جبار المعيبد. مطبعة الآداب. النجف.
- هشام، عبد الملك الحميري. (١٩٩٦م). السيرة النبوية. مصطفى السقا. إبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلبي. ط١. دار الخير دمشق - بيروت.
- ويليك، رينيه. (١٩٨٧م). مفاهيم نقدية. ترجمة محمد عصفور. سلسلة عالم المعرفة. ع١١٠.